انتشارات دانشگاه ادیان و مذاهب
۹۶

سنن التطور الاجتماعي

في القرآن الكريم

سماحة آية الله الشيخ محسن الأراكي

سنن التطور الاجتماعي

في القرآن الكريم

شبكة كتب الشيعة

سماحة آية الله الشيخ محسن الأراكي

shiabooks.net
mktba.net رابط بديل

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

بسم الله الرحمن الرحیم

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مقدّمة

إنّ من أهمّ ما تصدّى له الوحي الإلهيّ المتمثّل في كتاب الله المجيد هو بيان القوانين والسنن التي تحكم المجتمع الإنسانيّ في تطوّره منذ بداية تكوينه حتّى الغاية التي لابدّ أن يصل إليها في مسيرته الكادحة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿يَا أَيُّهَا الإنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا﴾[1].

ولذلك فإنّ من أولى الضروريّات لمجتمعنا الإسلاميّ في إطار فهم كتاب الله العزيز هو دراسة السنن التي تحكم التاريخ والتطوّر الاجتماعيّ؛ ليتسنّى لمجتمعنا الإسلاميّ أن يخطو خطواته نحو الأمام ببصيرة ووعي، وأن لا يكرّر أخطاء الماضين، وأن يسعى لبناء مستقبل زاهر سعيد، كما وعد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به المؤمنين والمتّقين، فقال:

---

(١) سورة الانشقاق: ٦.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ﴾[1].

﴿إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[2].

والذي بين يدي القارئ الكريم عرض موجز لأهمّ سنن التطوّر التاريخيّ في القرآن الكريم، نرجو أن يكون مساهمة مفيدة على صعيد الدراسات الاجتماعيّة القرآنيّة، وخاصّة في ظروفنا الحاضرة التي نحن بأمسّ الحاجة فيها إلى فهم القرآن الكريم، والإفادة من هديه في حياتنا المعاصرة.

محسن الأراكيّ

قم المقدّسة

---

(١) سورة النور: ٥٥.

(٢) سورة الأعراف: ١٢٨.

المدخل

١ ـ الإنسان والقوانين الحتميّة الكونيّة.

٢ ـ نظرة إلى السنن التي تحكم المجتمع والتاريخ من منظور قرآنيّ.

٣ ـ وعي الأنبياء وأوصياؤهم بالسنن التاريخيّة، وانسجامهم معها.

٤ ـ ضرورة دراسة ثورة الحسين صلوات الله عليه على ضوء من السنن الإلهيّة في المجتمع الإنسانيّ.

٥ ـ ثورة الحسين عليه السلام نقطة عطف في التطوّر الاجتماعيّ التاريخيّ.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

ينبغي تمهيداً للدخول في صلب الموضوع أن نقدّم بين يدي البحث توضيحاً في نقاط:

١. الإنسان والقوانين الحتميّة الكونيّة

إنّ ممّا لا ريب فيه أنّ المجتمع البشريّ تحكمه قوانين وسنن إلهيّة تكوينيّة، كالسنن التكوينيّة الّتي تحكم الطبيعة، والكون بأرجائه الفسيحة. وإنّ هذه السنن والقوانين؛ وإن لم تكن خاضعة للإرادة الإنسانيّة، بل هي قوانين جبريَّة خارجة عن إرادة الإنسان؛ ولكنّها - رغم ذلك - قابلة للتطويع، والتدبير ضمن دائرة التمكين الإلهيّ للإنسان في التصرّف في الكون، واستخدام قوانينه وسننه في سبيل تحقيق أهدافه ومقاصده.

فالإنسان بمقتضى خلافته لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذا الكون، قادر على استخدام هذه السنن والقوانين، والإفادة منها في سبيل مقاصده، شريطة أن يحيط بها علماً، وأن يحصل على الخبرة الكافية في طريقة الاستفادة منها، واستخدامها، وإدارتها.

ثمّ إنّ القوانين الّتي تحكم المجتمع والكون، قوانين هادفة متّجهة نحو غاية معيّنة، حدّدتها يد التدبير الإلهيّ للكون والمجتمع، ومهما حاول الإنسان صرف هذه القوانين عن غايتها النهائيّة، فسوف لن يحصد من جهده إلاّ التعب والشقاء، وإنّما يسعد الإنسان إذا أحسن الإفادة من هذه السنن بعد أن أحاط بعلمها، وسخّرها في سبيل المقاصد الإلهيّة الكبرى الّتي حدّدتها الإرادة الإلهيّة، ورسمتها يد التدبير الربّانيّ للنظام الكونيّ العامّ، وللمجتمع البشريّ على وجه الخصوص.

٢. السنن الحاكمة على المجتمع والتاريخ

لقد تضمّنت آيات القرآن الكريم كثيراً من القوانين والسنن الاجتماعيّة الّتي تحكم المجتمع وتطوّراته؛ فمن ذلك: قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[١].

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[٢].

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي

---

(١) سورة القصص: ٥.

(٢) سورة الأنبياء: ١٠٥.

الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾[1].

﴿إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[2].

هذه مجموعة من آيات الكتاب العزيز تضمّنت الإشارة إلى سنن إلهيّة تكوينيّة تحكم المجتمع البشريّ، وتحدّد له غاية خيّرة بشّر الله بها الإنسان، وهي مجتمع العدل والتقوى الّتي يحكم فيها الصالحون الأرض، ويعمرونها بالعدل والتوحيد وعبادة الله العظيم.

إنّ هذه الآيات تشير إلى السنّة الإلهيّة الّتي يتحدّد من خلالها الغاية الّتي ينتهي إليها المجتمع البشريّ.

وهناك آيات أخرى بيّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيها سننه الّتي أجراها بشأن ولادة المجتمع البشريّ، وبداياته الأولى؛ كقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالحقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾[3].

---

(١) سورة النور: ٥٥.

(٢) سورة الأعراف: ١٢٨.

(٣) سورة البقرة: ٢١٣.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[١].

﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[٢].

وغير ذلك من الآيات.

وهناك آيات أخرى بيّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيها سننه الّتي تحكم المجتمع البشريّ في تطوّراته التاريخيّة بين نقطتي البداية والنهاية؛ كقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِؤُونَ وَزُخْرُفًا..﴾[٣].

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[٤].

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ

---

(١) سورة البقرة: ٣٠.

(٢) سورة الحجرات: ١٣.

(٣) سورة الزخرف: ٢٣.

(٤) سورة الأعراف: ٩٦.

عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾[١].

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾[٢].

﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ٤ فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً﴾ إلى قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا﴾[٣].

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً ٧٦ سنّة مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾[٤].

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ فَلَمَّا جَاءهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ٤٢ اسْتِكْبَارًا فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ

---

(١) سورة الإسراء: ١٦.

(٢) سورة الإسراء: ٥٨.

(٣) سورة الإسراء: ٤-٧.

(٤) سورة الإسراء: ٧٦-٧٧.

يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَولِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾[١].

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ١١٢ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾[٢].

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ٨ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾[٣].

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾[٤].

---

(١) سورة فاطر : ٤٢-٤٣ .

(٢) سورة النحل : ١١٢-١١٣ .

(٣) سورة الطلاق : ٨-٩ .

(٤) سورة الحج : ٤٠-٤٥ .

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ٤٢ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٤٣ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾[1].

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ١٣٩ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٠ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[2].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[3].

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾[4].

---

(١) سورة الأنعام: ٤٢-٤٤.

(٢) سورة آل عمران: ١٣٩-١٤١.

(٣) سورة المائدة: ٥٤-٥٦.

(٤) سورة محمّد: ٣٨.

﴿إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾[1].

وغير ذلك من الآيات الكثيرة الّتي بيّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيها سنن التطوّر والتغيير في المجتمع الإنسانيّ، منذ ولادته حتّى الغاية الّتي ينتهي إليها؛ وهي مجتمع التقوى الّذي يحكمه عباد الله الصالحون.

٣. وعي القيادة الإلهيّة بالسنن والانسجام معها

إنّ الأنبياء وأوصياءهم كانوا عالمين بالسنن الإلهيّة التكوينيّة الّتي تحكم المجتمع والتاريخ، كعلمهم بالسنن الإلهيّة التشريعيّة بتعليم الله لهم، وبما أودعه الله في الكتب الّتي أنزلها على أنبيائه، ومن أجل ذلك، فالمواقف الّتي وقفها الأنبياء وأوصياؤهم على مدى التاريخ، جاءت منسجمة مع القوانين الإلهيّة الّتي تحكم المجتمع والتاريخ، مستهدفة هداية الإنسان، والأخذ بيده في المسيرة الإلهيّة الّتي تنتهي به إلى مجتمع العدل والتقوى الّذي هو الغاية الطبيعيّة الّتي سن الله قوانين التطوّر الاجتماعيّ في اتّجاهها.

ولأجل ذلك، فلا يمكن دراسة الأحداث التاريخيّة الّتي رسم من خلالها الأنبياء وأوصياؤهم الخطوط العريضة لحركة المجتمع الإنسانيّ في اتّجاه أهدافه الكبرى، ومقاصده السامية العليا دراسة

---

(١) سورة محمّد: ٣٨.

موضوعيّة، إلاّ ضمن إطار قوانين التطوّر الإلهيّة هذه الّتي تحكم المجتمع والتاريخ، والتي كان الأنبياء وأوصياؤهم أوّل العالمين بها، وأشدّ النّاس انسجاماً معها، وأكثرهم إفادة منها.

٤. دراسة ثورة الحسين عليه السلام على ضوء من السنن الإلهيّة

لم تكن ثورة الإمام الحسين عليه السلام الكبرى ثورة استشهاديّة بحتة لم يقصد منها إلاّ الاستشهاد، وإنّما كانت هذه الثورة الاستشهاديّة العظيمة طريقاً ووسيلة لتحقيق الأهداف الكبرى الّتي كان يرمي إليها الأنبياء في جهادهم وجهودهم على مدى التاريخ، لا سيّما خاتمهم وسيّدهم أشرف الأنبياء محمّد صلى الله عليه وآله .

وإنّما اتّخذ الإمام الحسين صلوات الله عليه - وبعهد من الله ورسوله معهود - الثورة الاستشهاديّة طريقاً لتحقيق تلك الأهداف والغايات لما كانت تمثّله هذه الثورة الاستشهاديّة من حلقة أساسيّة ضمن سلسلة التطوّرات والأحداث التاريخيّة الّتي كان لا بدّ منها في مسيرة الإنسان الصاعدة نحو المجتمع المطلوب المتمثّل في مجتمع المتّقين الّذي يحكمه عباد الله الصالحون.

فلابدّ من أجل معرفة الثورة الحسينيّة مضموناً وغايةً وأسلوباً أن ندرسها في إطارها وموقعها الطبيعيّ من منظومة القوانين والسنن الإلهيّة الّتي تحكم المجتمع والتاريخ، فإنّها تمثّل حلقة من حلقات

الأحداث الّتي تنتظم فيها منظومة مواقف الأنبياء وأوصيائهم المنسجمة مع السنن الإلهيّة في التغيير الاجتماعيّ والتطوّر التاريخيّ المتّجه نحو الغاية المنشودة للمجتمع الإنسانيّ، ضمن سنّة الله الّتي تحكم المجتمع والتاريخ.

٥. ثورة الحسين عليه السلام نقطة عطف في التطوّر الاجتماعيّ التاريخيّ

إنّ الأحاديث والروايات الّتي أكّدت على كون الثورة الحسينيّة ثورة إلهيّة قام بها الإمام الحسين عليه السلام بأمر من الله ورسوله تشير في مضمونها إلى ما تتناوله هذه الدراسة من كون هذه الثورة حلقة من حلقات المواقف التاريخيّة الّتي أمر بها الله سبحانه وتعالى أنبياءه وأوصياءهم ليوجّه بها مسيرة البشريّة الصامدة في إطار من السنن الإلهيّة نحو الأهداف الكبرى، وعلى رأسها إقامة النظام الإلهيّ على وجه الأرض كلّها. ومن جملة ما روي بهذا الشأن:

ما روي عن الإمام الباقر صلوات الله عليه جواباً عن سؤال حمران:

«جُعِلْتُ فِدَاكَ أَرَأَيْتَ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ قِيَامِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَالْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ عليهم السلام وَخُرُوجِهِمْ وَقِيَامِهِمْ بِدِينِ اللَّهِ عَزَّذِكْرُهُ وَمَا أُصِيبُوا مِنْ قَتْلِ الطَّوَاغِيتِ إِيَّاهُمْ وَالظَّفَرِ بِهِمْ حَتَّى قُتِلُوا وَغُلِبُوا فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام يَا حُمْرَانُ! إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَدْ كَانَ

قَدَّرَ ذٰلِكَ عَلَيْهِمْ وَقَضَاهُ وَأَمْضَاهُ وَحَتَمَهُ عَلَى سَبِيلِ الِاخْتِيَارِ ثُمَّ أَجْرَاهُ فَبِتَقَدُّمِ عِلْمٍ إِلَيْهِمْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَامَ عَلِيٌّ وَالْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ عليهم السلام وَبِعِلْمٍ صَمَتَ مَنْ صَمَتَ مِنَّا»[1].

وقد روي عن الإمام أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام عن أبيه الإمام الصادق عليه السلام - في حديث طويل - أنّه قال عليه السلام :

«نَزَلَتِ الْوَصِيَّةُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ كِتَاباً مُسَجَّلًا نَزَلَ بِهِ جَبْرَئِيلُ مَعَ أُمَنَاءِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنَ الْمَلَائِكَةِ..» إلى أن قال: «فَدَفَعَهُ إِلَيْهِ [أي إلى النبيّ ﷺ] وَأَمَرَهُ بِدَفْعِهِ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام .. » إلى أن قال: «فَقُلْتُ لِأَبِي الْحَسَنِ [موسى بن جعفر عليه السلام]: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي! أَلَا تَذْكُرُ مَا كَانَ فِي الْوَصِيَّةِ؟ فَقَالَ: سُنَنُ اللَّهِ، وَسُنَنُ رَسُولِهِ.. »[2] الحديث.

وفي رواية أخرى عن الإمام الصادق عليه السلام :

«إِنَّ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَّا [أي: الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام] صَحِيفَةً، فِيهَا مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ فِي مُدَّتِهِ..» إلى أن قال: «وَأَنَّ الْحُسَيْنَ عليه السلام قَرَأَ صَحِيفَتَهُ الَّتِي أُعْطِيَهَا، وَفُسِّرَ لَهُ مَا يَأْتِي بِنَعْيٍ، وَبَقِيَ فِيهَا أَشْيَاءُ لَمْ تُقْضَ، فَخَرَجَ لِلْقِتَالِ..»[3] الحديث.

---

(١) الأصول من الكافي ١ : ٢٦٢ .

(٢) المصدر نفسه: ٢٨٢-٢٨٣ .

(٣) المصدر نفسه: ٣٨٣ .

إنّ هذه الروايات وأمثالها تؤكّد ما ذكرناه من كون المواقف التاريخيّة الّتي اتّخذها الأئمّة صلوات الله عليهم إنّما جاءت جرياً على السنن الإلهيّة الحتميّة الّتي يسيّر الله بها المجتمع البشريّ نحو الهدف الغائيّ المرسوم له، وهو اختيار البشريّة للنظام العالميّ الإلهيّ القائم على أساس العدل في ضوء شريعة الله الّتي شرّعها لمجتمع الإنسان.

والآن، وبعد هذا التقديم، ينبغي لنا أن نبدأ بالبحث عن **سنن التطوّر الاجتماعيّ في القرآن الكريم**، وموقع الثورة الحسينيّة منها، وما ينتج عن ذلك من تفسير الواقع الاجتماعيّ والسياسيّ لحاضر البشريّة ومستقبلها.

الثورة الحسينيّة وحاضر المجتمع البشريّ ومستقبله
في ضوء سنن التطوّر الاجتماعيّ في القرآن الكريم

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

سنن التطوّر الاجتماعيّ المشار إليها في القرآن الكريم كثيرة، نخصّ بالذكر منها هنا ما هو أشدّ مساساً بالمنعطف التاريخيّ الخطير الّذي أحدثته الثورة الحسينيّة المباركة في تاريخ الإنسان، وبحاضر المجتمع البشريّ ومستقبله. ومنها ما يلي:

أوّلاً: سنّة العدل والحقّ.

ثانياً: سنّة الاستخلاف.

ثالثاً: سنّة الابتلاء والاختبار.

رابعاً: سنّة الاستبدال.

خامساً: سنّة التداول.

سادساً: سنّة التبديل والتغيير.

سابعاً: سنّة الإمهال والأخذ.

ثامناً: سنّة الاستدراج.

تاسعاً: سنّة الإعزاز والإذلال.

عاشراً: سنّة الانتظار.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

أوّلاً: سنّة العدل والحقّ

سنّة العدل والحقّ سنّة إلهيّة كونيّة عامّة تشمل في عمومها المجتمع البشريّ، مع فارق في التنفيذ بين منظومة المجتمع البشريّ وغيره من المنظومات الكونيّة، نشأ من اختياريّة السلوك الإنسانيّ والحرّيّة التكوينيّة الّتي وهبها الله للإنسان، وبها استحقّ موقع الخلافة الإلهيّة في عالم الوجود، دون غيره من المخلوقات.

لقد خلق الله الإنسان، وجعله حرّاً في اختيار السلوك الّذي يقرّر مصيره. قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[1].

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾[2].

---

(١) سورة الإنسان: ٢-٣.

(٢) سورة البقرة: ٢٥٦.

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ﴾[١].

وقد أكّد القرآن الكريم في كلّ هذه النصوص الّتي تضمّنت التصريح بحرّيّة الإنسان في إرادته وسلوكه الّذي يقرّر مصيره، أنّ هذه «الحرّيّة» لا تعني «اللامسؤوليّة»، ولا تعني «إلغاء المعايير القبليّة» الّتي يتحدّد على ضوئها الحقّ، ويتميّز بها عن الباطل؛ فإنّ الإنسان حُرّ، وهو مسؤول في حرّيّته أن يختار بها السلوك الصحيح السليم، وأن يتجنّب السلوك السقيم، وأن يختار الحقّ ويقف إلى جانبه، وأن يرفض الباطل ويقف في وجهه. قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلَّهِ﴾[٢].

﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾[٣].

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[٤].

﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾[٥].

﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ﴾[١].

---

(١) سورة الكهف: ٢٩.

(٢) سورة النساء: ١٣٥.

(٣) سورة الرحمن: ٩.

(٤) سورة الحديد: ٢٥.

(٥) سورة الشورى: ١٥.

فلا تعني حرّيّة الإنسان - إذاً - أنّ الإنسان هو الّذي يحدّد الحقّ والخير والفضيلة باختياره؛ فكلّ ما اختاره الإنسان - مجتمعاً، أو فرداً - فهو الخير والحقّ والفضيلة، وكلّ ما رفضه الإنسان - مجتمعاً، أو فرداً - فهو الباطل والشر والرذيلة، بل الخير والشرّ، والعدل والظلم، والفضيلة والرذيلة، مقولات «ما قبل الإنسان»، وهي سابقة في وجودها وتقرّرها على الإنسان واختياره وإرادته الحرّة، والإنسان مسؤول في إرادته الحرّة أن يطبّق إرادته وسلوكه الاختياريّ على تلك المعايير (قبل الإنسانيّة)، وأن يتّبع في إرادته ومواقفه الاختياريّة تلك المعايير القبليّة.

هذا على النقيض من الثقافة الغربيّة، وما انبثق منها من النظريّات الاجتماعيّة الّتي تتّفق في أغلبها على نقطة خطيرة للغاية؛ وهي بَعْدِيّة القيم الأخلاقيّة والمقدّسات والمعنويّات كلّها للإنسان وإرادته، فالإنسان هو الّذي يحدّد الخير والحقّ والعدل بإرادته واختياره، فكلّ ما اختاره الإنسان هو الخير والفضيلة والحقّ، فالقيم هي الّتي تتّبع الإنسان، وليس العكس!

هذه الرؤية الغربيّة الهيومانيزميّة هي الأساس في التفكير الاجتماعيّ الغربيّ وقيمه، من الحرّيّة، والديمقراطيّة، وغيرهما. وهي رؤية أقلّ ما ينتج منها: ضياع القيم والأخلاق، وسلطة الهوى على

---

(١) سورة المائدة: ٤٨.

المجتمع الإنسانيّ وسلوكه، ثمّ ما ينتهي إليه من الفوضى الأخلاقيّة، وشيوع الفساد، وتفشّي الظلم، وهيمنة الطواغيت على مقدّرات المجتمع الإنسانيّ، ومصيره، ومواقع القرار فيه.

أمّا الإسلام، فإنّه يؤكّد على قبليّة القيم والمعايير الأخلاقيّة على المجتمع الإنسانيّ، والإنسان، وإرادته، وأنّ الإنسان مسؤول أمام تلك القيم والمعايير، وعليه أن يختار سلوكه وفقاً لما تمليه عليه القيم الأخلاقيّة العليا، وأن يختار الخير دون الشرّ، والعدل دون الظلم، والحقّ دون الباطل.

وبما أنّ العقل الإنسانيّ ليس معصوماً في إدراكه الخلقيّ، وكثيراً ما يخطئ في فهمه للقيم الأخلاقيّة، أو في تطبيقها على جزئيّاتها ومصاديقها، فقد جاء الدّين ناطقاً عن لسان الوحي الإلهيّ المعصوم، ليضع النقاط على الحروف، ويحدّد للإنسان الطريق السليم في الحياة، والصراط المستقيم الّذي لا يزيغ عن الحقّ والعدل أبداً:

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[1].

ومهما يكن من أمر، فسنّة العدل والحقّ سنّة كونيّة عامّة أكّد عليها وعلى شمولها القرآن الكريم، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا

---

(١) سورة الإنسان: ٣.

بِالْقِسْطِ﴾[١].

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ٣٨ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾[٢].

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾[٣].

فالسنّة الّتي تحكم السماوات والأرض هي سنّة الحقّ التامّ، والعدل الكامل، وهذه السنّة كما تحكم السماوات والأرض في خلقها الأولى - قبل يوم القيامة - كذلك تحكمها في خلقها المعاد يوم القيامة. قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾[٤].

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾[٥].

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالحقّ﴾[٦].

---

(١) سورة آل عمران: ١٨.

(٢) سورة الدخان: ٣٨- ٣٩.

(٣) سورة الأنعام: ٧٣.

(٤) سورة الأنعام: ٧٣.

(٥) سورة الأنبياء: ٤٧.

(٦) سورة يونس: ٥.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالحقّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ١٩ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾[١].

﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالحقّ﴾[٢].

والحقّ هو العدل في صورته الكونيّة، كما أنّ العدل هو الحقّ في صورته الاجتماعيّة، فالسلوك الاجتماعيّ المنطبق على معايير الحقّ هو السلوك العادل، والخلق الكونيّ المنطبق على معايير الخير والفضيلة هو الحقّ في مقياسه الكونيّ.

فالكون - كلّه - قائم على أساس الحقّ والعدل والخير، وليس المجتمع الإنسانيّ بدعاً في هذا النظام الكونيّ العامّ، فسنّة الحقّ العامّة تشمل المجتمع الإنسانيّ، فهو أيضاً قائم على أساس الحقّ.

وهنا سنّة أخرى خَصّ الله بها الإنسان دون غيره من موجودات الكون؛ وهو أنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وهب للإنسان الإرادة، وحرّيّة الاختيار، وجعله ذا سلطة كونيّة على سلوكه ومصيره، فهو الّذي يختار سلوكه، وهو الّذي يقرّر لنفسه مصيرها. قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾[٣].

---

(١) سورة إبراهيم: ١٩-٢٠.

(٢) سورة الروم: ٨.

(٣) سورة البقرة: ٢٥٦.

﴿وَقُلِ الحقّ مِن رَّبِّكُمْ فمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ﴾[١].

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[٢].

والّذي ينتج عن هذه السنّة عندما تجري في المجتمع الإنسانيّ الّذي تحكمه سنّة الحقّ والعدل الكونيّة، هو حتميّة المرحلة الّتي يختار فيها الإنسان بإرادته الحرّة إقامة العدل والحقّ التامّ على نفسه ومجتمعه، وهذه هي الغاية الّتي يتّجه إليها المجتمع الإنسانيّ في تطوّراته الاجتماعيّة، وتحوّلاته التاريخيّة. قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾[٣].

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[٤].

﴿إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ

---

(١) سورة الكهف: ٢٩.

(٢) سورة الإنسان: ٣.

(٣) سورة النور: ٥٥.

(٤) سورة الأنبياء: ١٠٥.

لِلْمُتَّقِينَ﴾[١].

فعلى أساس هاتين السنّتين: سنّة العدل والحقّ الكونيّة، وسنّة الحرّيّة والاختيار في الإرادة الإنسانيّة، تنبثق سنّة الخطّ التطوّريّ العامّ الموجَّه في التاريخ، والّتي تعني أنّ تطوّرات المجتمع البشريّ وتحوّلاته لابدّ أن تؤدّي بالمجتمع الإنسانيّ - في نهاية الأمر - إلى أن يبلغ درجة من النضج الإراديّ، والوعي في الاختيار، تجتمع فيها الإرادة الغالبة في المجتمع الإنسانيّ على اختيار نظام العدل التامّ الشامل، تحت قيادة معصومة، تقيم العدل والقسط على ربوع الأرض كلّها، وبذلك تستقرّ حكومة الصالحين. قال رسول الله ﷺ :

«لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُملؤُ الأَرضُ ظُلْمَاً وَجَوراً وَعُدوَاناً، ثمّ يَخرُجُ مِن أَهلِ بَيتِي مَن يَملؤُهَا قِسطاً وَعَدلاً كمَا مُلِئَتْ ظُلماً وَجَوراً»[٢].

---

(١) سورة الأعراف : ١٢٨ .

(٢) مستدرك الحاكم على الصحيحين ٤ : ٥٥٧ ، مسند أحمد ٣ : ٣٦ .

ثانياً: سنّة الاستخلاف

انسجاماً مع سنّة العدل والحقّ الكونيّة، وانعكاسها الاجتماعيّ ضمن سنّة الخط التطوّريّ الموجّه نحو قيام نظام العدل التامّ الشامل في المجتمع البشريّ، تأتي «سنّة الاستخلاف» الإلهيّة الّتي تعني: أنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يستخلف في الأرض في كلّ دورة زمنيّة أمّة من الأمم، ويرشّحها لكي تقوم بدور الخلافة الإلهيّة في الأرض، فيمكّنها في الأرض، ويخوّل لها السلطة والقدرة، ويحمّلها مسؤوليّة قيادة الأمم الأخرى في سبيل إقامة العدل في الأرض كلّها، وعمرانها، وإدارتها، وفقاً لشريعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ العادلة.

والاستخلاف الإلهيّ للإنسان في الأرض ذو مرحلتين:

المرحلة الأولى: الاستخلاف الفرديّ

وهو استخلاف الإمام العادل الشاهد على الإنسان.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(١).

وقال سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مخاطباً النبيّ داوود عَلَىٰ نَبِيِّنَا وَآلِهِ وَعَلَيْهِ السَّلَام :

﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالحقِّ﴾(٢).

وقال سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مخاطباً النبيّ إبراهيم عَلَىٰ نَبِيِّنَا وَآلِهِ وَعَلَيْهِ السَّلَام :

﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾(٣).

وقال سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ :

﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبراهيم ٦٩ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ٧٠ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ٧١ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ٧٢ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾(٤).

تبيّن هذه الآيات سنّة الخلافة الفرديّة؛ وهي إمامة الأفضلين في

---

(١) سورة البقرة : ٣٠ .

(٢) سورة ص : ٢٦ .

(٣) سورة البقرة : ١٢٤ .

(٤) سورة الأنبياء : ٦٩-٧٣ .

مجتمع الإنسان، كما تشرح مواصفات هؤلاء الأئمّة الخلفاء، وأنّهم صالحون، ويهدون بأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأنّهم يُوحى إليهم فعل الخيرات، ولذلك فهم أئمّة المجموعة الخيّرة المستخلفة على الأرض، وأنّهم الّذين يقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ويعبدون الله عبادة خالصة من الشرك والرّيب والترديد، وهذه هي بالضبط مواصفات الأمّة المستخلفة التابعة للخليفة الإمام:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾[1].

وفي سياق الاستخلاف الفرديّ للإمام القائد المطيع لله المنفّذ لأوامره وأحكامه الهادي إلى سبيله، يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أيضاً:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ٢٣ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[2].

وفي هاتين الآيتين إشارة إلى استجابة الله دعاء إبراهيم عَلَىٰ نَبِيِّنَا وَآلِهِ وَعَلَيْهِ السَّلَامُ عندما اختاره الله إماماً فقال له:

---

(١) سورة النور: ٥٥.

(٢) سورة السجدة: ٢٣-٢٤.

﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾[١].

فدعا ربّه قائلاً:

﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[٢].

ونظير هذا الدّعاء، دعا به أمير المؤمنين صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ في ما حكاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن لسانه – حسب ما جاء في الروايات[٣] – قائلاً:

﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾[٤].

فاستجاب الله دعاءه وجعله وذريته أئمّة للمتقين في ما أخبر به رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ؛ إذ قال – في ما تواتر عنه –:

«إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمُ الثَّقَلَيْنِ كِتَابَ اللهِ وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي أَبَداً وَإِنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ»[٥].

---

(١) سورة البقرة : ١٢٤ .

(٢) سورة البقرة : ١٢٤ .

(٣) جاء في تفسير الأصفى للمحدث الكاشانيّ: وردت هذه الآية – خاصّة – في أمير المؤمنين عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ كان أكثر دعائه يقول: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا ..﴾ إلى آخر الآية. وقد روى الرواية – بهذا الشأن – عن سعيد بن جبير في المناقب، ٣: ٣٨٠ .

(٤) سورة الفرقان : ٧٤.

(٥) صحيح مسلم ٧ : ١٢٣ . ومسند أحمد ٣: ٧٣، الحديث: ١١٥٦٧ .

والمهمّة الّتي عهد الله بها للإمام المستخلف هي هداية الأمّة المستخلفة، وقيادتها، وإعدادها للقيام بدور الإمامة الجماعيّة لأمم الأرض؛ لإقامة العدل على الأرض كلّها، وبناء المجتمع العالميّ للمتّقين. وهنا، يأتي دور الاستخلاف الجماعيّ، وهي المرحلة الثانية من مرحلتي الاستخلاف:

المرحلة الثانية: مرحلة الاستخلاف الجماعيّ

ويُقصد به استخلاف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لأمّةٍ ما بالتمكين في الأرض، وترشيحها لإمامة الأمم الأخرى، بشرط صبرها على الأذى في الله، وطاعتها للإمام المستخلف من الله في الأرض، وثباتها على نصرته في سبيل إقامة العدل في جميع ربوع الأرض.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في إشارة إلى هذا الاستخلاف الجماعيّ:

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ١٢٨ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[1].

وحسب التصريح الوارد في هاتين الآيتين: فقد استخلف الله

---

(١) سورة الأعراف: ١٢٨-١٢٩.

بني اسرائيل، واختارهم لإمامة الأمم، بعد أن أبلاهم بأنواع البلاء فصبروا - شأنهم في ذلك شأن الإمامة والخلافة الفرديّة الّتي اختار الله لها إبراهيم، بعد أنواع من البلاء الّتي صبر عليها في سبيل الله - فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في إشارة إلى تمكينهم، واستخلافهم في الأرض:

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾[1].

وسوف نوضّح في أبحاثنا القادمة أنّ الأمّة المستخلفة المرشّحة لإمامة الأمم تجري بشأنها سنّة الابتلاء والاختبار؛ لترتفع إلى مستوى القيادة والإمامة - كما هو الحال بشأن الاستخلاف الفرديّ للإمام المختار من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -.

وسنبيّن أنّ سنّة الابتلاء هذه على مرحلتين:

أوّلاً: مرحلة ما قبل التمكين.

وثانياً: مرحلة ما بعد التمكين.

وأنّ بني اسرائيل استطاعت أن تجتاز مرحلة الابتلاء ما قبل التمكين بنجاح؛ لكنّها فشلت فشلاً ذريعاً في مرحلة الابتلاء ما بعد

---

(١) سورة الأعراف: ١٣٧.

التمكين، فسقطت في هوّة الشهوات، واتّباع الأهواء، حتّى سلبها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عزّ الإمامة والاستخلاف، وأبدلها عوضاً عن ذلك بذُلّ اللعنة والغضب؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾[١].

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ﴾[٢].

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الحقّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾[٣].

والمؤسف جدّاً أنّ المصير نفسه ابتلي به المجتمع الإسلاميّ الأوّل في نهاية الأمر؛ فإنّه وإن نجح نجاحاً باهراً في ما أبلي به قبل التمكين الإلهيّ، حتّى عاد ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[٤]، مطيعة لرسول الله ﷺ ناصرة له: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾[٥]؛ ولكنّه - أي: المجتمع الإسلاميّ - بعد أن تمّ له التمكين الإلهيّ، وبعد رحيل

---

(١) سورة مريم: ٥٩.

(٢) سورة المائدة: ١٣.

(٣) سورة البقرة: ٦١.

(٤) سورة آل عمران: ١١٠.

(٥) سورة الأنفال: ٦٢.

رسول الله ﷺ، مرّ بأنواع من الابتلاء الخاصّ بمرحلة ما بعد التمكين، فلم يعد موفّقاً في اجتياز مراحل الابتلاء في ما بعد التمكين، فعاد مطيعاً لأعداء الله ورسوله (الأمويّين)، بعد أن كان مطيعاً لله ولرسوله، وأدّت طاعة الأمويّين إلى أن ينتهي الأمر بالأمّة الّتي كانت في زمن الرسول أمّةً عزيزة بطاعة الله ورسوله أن تسقط في فخّ الشهوات وحبّ الدنيا والأهواء، وأن تصاب بنفس ما أصاب بني إسرائيل من الذّل والهوان الّذي نشهده اليوم في واقع مجتمعنا الّذي ينتمي إلى الإسلام تاريخيّاً، ولا ينتمي إليه نظاماً، وإدارة وسياسة، واقتصاداً، وثقافةً، وقيماً، وخلُقاً، وسلوكاً.

وقد ورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ﴾[1]:

«لَتَسْلُكُنَّ سَبِيلَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ فِي الْغَدْرِ بِالْأَوْصِيَاءِ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ»[2].

وورد عنه عليه السلام أيضاً:

«لَتَرْكَبُنَّ سَبِيلَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ وَالْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ..»[3] الحديث.

---

(١) سورة الانشقاق: ١٩.

(٢) تفسير الأصفى، للكاشانيّ، ج٢، ص١٤٢٤.

(٣) المصدر السابق.

وروى أحمد بن حنبل في مسنده، عن أبي سعيد الخدريّ؛ قال:

«قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَتَتَّبِعُنَّ سُنَنَ بَنِي إِسرَائِيلَ شِبراً بِشِبرٍ، وَذِرَاعاً بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَو دَخَلَ رَجُلٌ مِن بَنِي إِسرَائِيلَ جُحْرَ ضَبٍّ لَتبِعتُمُوهُم فِيهِ»[1].

وقد روى المحدّثون عن رسول الله ﷺ أحاديث أخرى بنفس المضمون المشتمل على التأكيد على أنّ أمّة محمّد ﷺ سوف يجري عليها نفس ما جرى على أمّة موسى عَلَى نَبِيِّنَا وَآلِهِ وَعَلَيْهِ السَّلَام طابق النّعل بالنّعل، وحذو القُذّة بالقُذّة.

وقد بلغ أمر انقلاب الأمّة على الله وعلى رسوله، وخذلانهم لرسول الله ﷺ ذروته عندما أجمعت على طاعة الطاغية يزيد، وأذعنت لأمره في قتل الحسين صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وأصحابه الطّيّبين، وقد جاءت الإشارة إلى ذلك في كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إذ قال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢١ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾[2].

---

(١) مسند أحمد، ج٣، ص ١١٥، الحديث: ١١٩٠٣.

(٢) سورة آل عمران: ٢١-٢٢.

وكان اجتماع الأمويّين ومن أطاعهم من أراذل الأمّة وعتاتها على قتل الصفوة الصالحة من أهل بيت النبيّ ﷺ وأتباعهم المخلصين ذروة الطغيان والانقلاب على الأعقاب الّذي حذّر الله أمّة الرسول ﷺ منه؛ إذ قال:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾[1].

وقد أخبر النبيّ ﷺ بذلك في ما تواتر عنه من الخبر في أكثر من حديث؛ ففي كتاب التفسير من صحيح البخاريّ عن رسول الله ﷺ:

«يُجَاءُ بِرِجَالٍ مِنْ أُمَّتِي فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ! أُصَيْحَابِي! فَيُقَالُ: إِنَّكَ لا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ. فَأَقُولُ كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾[2]، فَيُقَالُ: إِنَّ هَؤُلاءِ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ»[3].

وفي كتاب الرِّقاق من صحيح البخاريّ أيضاً عن النبيّ ﷺ قال:

---

(١) سورة آل عمران: ١٤٤.

(٢) سورة المائدة: ١١٧.

(٣) صحيح البخاريّ، كتاب التفسير، تفسير سورة المائدة، باب: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾.

«بَيْنَا أَنَا قَائِمٌ إِذَا زُمْرَةٌ، حَتَّى إِذَا عَرَفْتُهُمْ خَرَجَ رَجُلٌ مِنْ بَيْنِي وَبَيْنِهِمْ، فَقَالَ: هَلُمَّ! فَقُلْتُ: أَيْنَ؟ قَالَ: إِلَى النَّارِ - وَاللَّهِ -، قُلْتُ: وَمَا شَأْنُهُمْ؟ قَالَ: إِنَّهُمْ ارْتَدُّوا بَعْدَكَ عَلَى أَدْبَارِهِمُ الْقَهْقَرَى، ثُمَّ إِذَا زُمْرَةٌ، حَتَّى إِذَا عَرَفْتُهُمْ خَرَجَ رَجُلٌ مِنْ بَيْنِي وَبَيْنِهِمْ، فَقَالَ: هَلُمَّ! فَقُلْتُ: أَيْنَ؟ قَالَ: إِلَى النَّارِ - وَاللَّهِ -، قُلْتُ: وَمَا شَأْنُهُمْ؟ قَالَ: إِنَّهُمْ ارْتَدُّوا بَعْدَكَ عَلَى أَدْبَارِهِمُ الْقَهْقَرَى، قَالَ: فَلَا أُرَاهُ يَخْلُصُ مِنْهُمْ إِلَّا مِثْلُ هَمَلِ النَّعَمِ»[1].

وفي صحيح البخاريّ أيضاً، عن سهل بن سعد؛ قال:

«قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ مَنْ مَرَّ عَلَيَّ شَرِبَ، وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا، لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ، قَالَ أَبُو حَازِمٍ: فَسَمِعَنِي النُّعْمَانُ بْنُ أَبِي عَيَّاشٍ، فَقَالَ: هَكَذَا سَمِعْتَ مِنْ سَهْلٍ؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ، فَقَالَ: أَشْهَدُ عَلَى أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ لَسَمِعْتُهُ، وَهُوَ يَزِيدُ فِيهَا: فَأَقُولُ: إِنَّهُمْ أُمَّتِي فَأَقُولُ: إِنَّهُمْ مِنِّي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: سُحْقًا، سُحْقًا، لِمَنْ غَيَّرَ بَعْدِي»[2].

وفي صحيح مسلم:

«لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ الْحَوْضَ رِجَالٌ مِمَّنْ صَاحَبَنِي، حَتَّى إِذَا رَأَيْتُهُمْ

---

(١) صحيح البخاريّ، كتاب الرقاق، الحديث: ٦٠٩٩ .

(٢) المصدر السابق، الحديث: ٦٠٩٧. و: كتاب الفتن، الحديث ٦٥٢٨.

وَرُفِعُوا إِلَيَّ، اخْتُلِجُوا دُونِي، فَلَأَقُولَنَّ: أَيْ رَبِّ! أُصَيْحَابِي، أُصَيْحَابِي! فَلَيُقَالَنَّ لِي: إِنَّكَ لا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ»[1].

وفي مسند أحمد بن حنبل، عن أمّ سلمة، عن رسول الله ﷺ:

«أَيُّهَا النَّاسُ! بَيْنَمَا أَنَا عَلَى الْحَوْضِ، جِيءَ بِكُمْ زُمَرًا، فَتَفَرَّقَتْ بِكُمُ الطُّرُقُ، فَنَادَيْتُكُمْ: أَلا هَلُمُّوا إِلَى الطَّرِيقِ! فَنَادَانِي مُنَادٍ مِنْ بَعْدِي؛ فَقَالَ: إِنَّهُمْ قَدْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ، فَقُلْتُ أَلا سُحْقاً، أَلا سُحْقاً»[2].

ولقد وصف أمير المؤمنين عليّ عليه السلام الحالة الّتي آل إليها أمر الأمّة الإسلاميّة، ولمّا لم يمض عن رحيل رسول الله ﷺ ثلاثة عقود قائلاً:

«وَاعْلَمُوا - رَحِمَكُمُ اللَّهُ - أَنَّكُمْ فِي زَمَانٍ الْقَائِلُ فِيهِ بِالْحَقِّ قَلِيلٌ، وَاللِّسَانُ عَنِ الصِّدْقِ كَلِيلٌ، وَاللَّازِمُ لِلْحَقِّ ذَلِيلٌ، أَهْلُهُ مُعْتَكِفُونَ عَلَى الْعِصْيَانِ، مُصْطَلِحُونَ عَلَى الْإِدْهَانِ، فَتَاهُمْ عَارِمٌ، وَشَائِبُهُمْ آثِمٌ، وَعَالِمُهُمْ مُنَافِقٌ، وَقَارِئُهُمْ مُمَاذِقٌ، لا يُعَظِّمُ صَغِيرُهُمْ كَبِيرَهُمْ، وَلا يَعُولُ غَنِيُّهُمْ فَقِيرَهُم»[3].

ومهما يكن من أمر، فإنّ السنّة والتاريخ يحدّثاننا بما انتهى إليه أمر الأمّة المستخلفة في العصر الإسلاميّ الأوّل من معصية الرسول ﷺ، وخذلانه، وانقلاب على الأعقاب، بلغ ذروته في ما شهدته أرض

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب: إثبات حوض نبيّنا.

(٢) مسند أحمد، ج٦، ص٣٣٠، الحديث: ٢٦٦٠٢ .

(٣) نهج البلاغة، الخطبة: ٢٣٢ .

الطّف في يوم عاشوراء، من التنكيل بذريّة محمّد الطيبّين صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِم، وإبادتهم، وتشريدهم، وقتل رجالهم وأطفالهم، وسبي نسائهم، حتّى أنّ التاريخ الإسلاميّ لم يشهد حدثاً بين طائفتين من المسلمين أُبيد فيها الرجال، وسُحقت فيها أجسادهم بسنابك الخيول، وسُبيت فيها النساء، ونُكّل فيها بالأطفال، وأُريقت منهم الدماء، كما شهد ذلك في ما حدث لأبناء رسول الله، وأحفاده، وأهل بيته الطيّبين الطاهرين صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِم أَجْمَعِيْن.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

ثالثاً: سنّة الابتلاء والاختبار

لقد أشرنا في ما سبق إلى أنّ سنّة الحقّ الكونيّة الشاملة للمجتمع الإنسانيّ – مقرونة بما شاءه الله للإنسان الّذي اختاره خليفة له على الأرض من أن يكون مختاراً، مريداً تقرير مصيره بنفسه، ويختار سبيل حياته بإرادته – اقتضت أن يكون التطوّر التاريخيّ في المجتمع الإنسانيّ تطوّراً موجّهاً، ينتهي إلى النقطة الّتي يختار الإنسان فيها بملئ إرادته مجتمع العدل المنقاد للقيادة الإلهيّة العادلة، وبذلك تتحقّق الغاية المطلوبة في حركة التطوّر الاجتماعيّ، وتبلغ سنّة الحقّ الكونيّة غايتها في المجتمع الإنسانيّ.

وقلنا إنّ هذه المسيرة الصاعدة إنّما تبلغ غايتها من خلال سنن إلهيّة تحكم التطوّر التاريخيّ للمجتمع الإنسانيّ، وتوجّهه نحو الغاية المنشودة، وكانت سنّة الاستخلاف من أهمّ هذه السنن الإلهيّة الّتي تحكم حركة التطوّر الاجتماعيّة في تاريخ الإنسان.

غير أنّ سنّة الاستخلاف، لكونها سنّة موجّهة – كما هو الحال في عامّة السنن الاجتماعيّة الإلهيّة الّتي تحكم حركة التطوّر الاجتماعيّ –

فهي مقرونة بسنن أخرى، مساهمة في هذا التوجيه، أهمّها وألصقها بسنّة الاستخلاف هي «سنّة الابتلاء والاختبار».

والّذي تعنيه هذه السنّة هو أنّ الاستخلاف الإلهيّ للإنسان ليس استخلافاً عشوائيّاً أو اعتباطيّاً، بل هو استخلاف استحقاقيّ يُهيَّؤُ له الإنسان الّذي يراد استخلافه من خلال سنّة الابتلاء والاختبار.

فسنّة الابتلاء والاختبار هي سنّة موجِّهة للتطوّر الاجتماعيّ، تقوم بدور استثارة مواهب الإنسان المرشّح للاستخلاف الإلهيّ، وطاقاته المخزونة، لتجعل منه الإنسان الكفوء، القادر على تحمّل أعباء الأمانة الإلهيّة، النافض من نفسه غبار الاسترخاء والخلود إلى الأرض، والرافض للظلم والجهل، اللّذَيْن يحولان دون استحقاقه للخلافة الإلهيّة، وتسلبانه الكفاءة على تحمّل الأمانة الإلهيّة، وتجعله يتحلّى بدلاً عن ذلك بالعدل والعلم، اللّذَيْن يبوّءانه المبوّء الصالح للخلافة الإلهيّة.

وقد أشير إلى العنصرين اللّذَيْن يحولان دون تأهيل الإنسان لحمل الأمانة الإلهيّة في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا

جَهُولًا﴾[١].

والاستخلاف الإلهيّ يعني - كما أشرنا سابقاً - : تَبَوُّء الإنسان موقع الإمامة القائدة لإقامة العدل الكونيّ في عامّة أرجاء الأرض، ولقد قلنا في ما سبق: إنّ الإمامة والاستخلاف الإلهيّ على نوعين: «**إمامة فرديّة**»؛ تعني: استخلاف الفرد لقيادة البشريّة في طريقها لإقامة المجتمع العادل، و«**إمامة جماعيّة**»؛ تعني: إمامة المجموعة الطلائعيّة الّتي تقود الأمم الأخرى في سبيل تأسيس الحضارة الكونيّة الفضلى، وإقامة المجتمع العالميّ العادل في ظلّ دولة الصالحين. قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[٢].

ولكلّ من هذين الاستخلافين (الاستخلاف الفرديّ، والاستخلاف الجماعيّ) مراحل إعداديّة، يتهيّأ الإنسان من خلالها لتحمّل أعباء الخلافة الإلهيّة، وهذه المراحل الإعداديّة هي الّتي نعبّر عنها بسنّة الابتلاء والاختبار.

وقد أشار الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلى تنفيذ سنّة الابتلاء على مستوى الاستخلاف الفرديّ، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بشأن إبراهيم عَلَىٰ نَبِيِّنَا وَآلِهِ وَعَلَيْهِ السَّلَامُ:

---

(١) سورة الأحزاب: ٧٢.

(٢) سورة الأنبياء: ١٠٥.

﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾[1].

ومن أهمّ هذه الكلمات الّتي ابتلي بها إبراهيم عليه السلام رؤياه الّتي رأى فيها أنّه يذبح ابنه، فقد عبّر الله سبحانه وتعالى عن هذا الابتلاء بـ «البلاء المبين»؛ إذ قال:

﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ١٠١ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ١٠٢ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ١٠٣ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ١٠٤ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ١٠٥ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾[2].

ومن خلال هذا الابتلاء – وأمثاله من الكلمات الّتي ابتلى الله بها إبراهيم – تَمَّ تأهيل إبراهيم عليه السلام لموقع الإمامة العامّة، والخلافة الإلهيّة الكبرى. وهكذا، تمّ تأهيل غيره من الأئمّة الصالحين، وخلفاء الله الأبرار؛ كما أشار الله سبحانه وتعالى إلى ذلك في قوله:

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا

---

(١) سورة البقرة: ١٢٤.

(٢) سورة الصافات: ١٠١-١٠٦.

يُوقِنُونَ﴾[١].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾[٢].

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾[٣].

هذا في ما يخصّ الابتلاء التأهيليّ للخلافة الفرديّة، وأمّا على مستوى الابتلاء التأهيليّ للجماعة الطلائعيّة المؤمنة، والّذي يتمّ من خلاله تأهيلها، وإعدادها للاستخلاف الجماعيّ، ثمّ الإمامة الجماعيّة لأمم الأرض الأخرى، وقيادتها نحو المجتمع الأمميّ العادل الّذي يشمل سكّان الأرض كلّهم بإمامة الصالحين، فقد أشار الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في كثير من آياته إلى سنّة الابتلاء الجماعيّة هذه، فقال:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ

---

(١) سورة السجدة: ٢٤.

(٢) سورة الفرقان: ٢٠.

(٣) سورة الأنعام: ٣٤.

وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾[1].

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ١٤٦ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ١٤٧ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[2].

و«ثواب الدّنيا» هنا - كما يبدو - هو استخلافهم في الأرض، وتمكينهم فيها لإقامة العدل؛ كما أشار إلى ذلك قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾[3].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أيضاً - في إشارة إلى سنّة الابتلاء الجماعيّة الّتي مرّ بها بنو إسرائيل - :

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلَاء مِّن رَّبِّكُمْ

---

(١) سورة البقرة: ٢١٤ .

(٢) سورة آل عمران: ١٤٦-١٤٨ .

(٣) سورة الحج: ٤٠ / ٤١ .

عَظِيمٌ﴾[١].

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ٣٠ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ٣١ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ٣٢ وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ﴾[٢].

وقد أكّد القرآن الكريم أنّ سنّة الابتلاء الجماعيّة عامّة شملت وتشمل جميع الأمم الّتي يراد استخلافها في الأرض بدءً من أُمّة نوح عَلَىٰ نَبِيِّنَا وَآلِهِ وَعَلَيْهِ السَّلَامُ وانتهاءً بأُمّةِ محمّد خاتم النبيّين ﷺ، فقال في إشارة إلى ابتلاء الأمّة الطلائعيّة الأولى - أي أمّة نوح -:

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ إلى قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ٢٨ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ٢٩ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾[٣].

وقال بشأن أمّة محمّد ﷺ خاصّة:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾[٤].

---

(١) سورة البقرة: ٤٩.

(٢) سورة الدخان: ٣٠-٣٣.

(٣) سورة المؤمنون: ٢٦-٣٠.

(٤) سورة محمّد: ٣١.

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾[1].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مشيراً إلى سنّة الابتلاء العامّة الشاملة لكلّ أمم الأرض الّتي يراد تأهيلها لاستخلاف الأرض:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[2].

ثمّ إنّ سنّة الابتلاء هذه - كما ألمحنا سابقاً إنّما تتمّ ضمن مرحلتين: الأولى: مرحلة **ما قبل التمكين**، والثانية: مرحلة **ما بعد التمكين**. والابتلاء ما قبل التمكين يؤهّل الأمّة للاستخلاف في مرحلته الأولى؛ وهي: تمكين المجموعة المؤمنة من السلطة، واستخلافها لإقامة العدل على نفسها في ظلّ القيادة الإلهيّة؛ قيادة الإمام المستخلف من الله لقيادة الناس، وإقامة العدل على وجه الأرض. قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[3].

---

(١) سورة آل عمران: ١٨٦.

(٢) سورة الكهف: ٧.

(٣) سورة الحديد: ٢٥.

﴿قُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾[١].

وقد وفّقت الأمّة الإسلاميّة في مرحلة الاستخلاف الأولى، ونجحت في الابتلاء التأهيليّ لقيام مجتمع عادل، تحكمه سلطة عادلة، مكّنها الله في الأرض، فنصرت رسول الله ﷺ، ونصرها الله، حتّى استقرّت السلطة العادلة بقيادته ﷺ، وبهذا، استحقّت الوسام الإلهيّ حين وصفها بأنّها «خير أمّة أُخرجت للنّاس»؛ فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ..﴾[٢].

﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[٣].

وهكذا، خرجت أمّة الرسول ﷺ بنجاح من الدورة التأهيليّة الأولى؛ وهي: دورة الابتلاء ما قبل التمكين، فاستحقّت بذلك التمكين الإلهيّ، ووهبها الله لها هذا التمكين، واستخلفها في الأرض؛ لكي تواصل مسيرتها في اتّجاه المرحلة الثانية من الاستخلاف الإلهيّ الّذي وعدها الله بها؛ إذ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي

---

(١) سورة الشورى: ١٥.

(٢) سورة آل عمران: ١١٠.

(٣) سورة الفتح: ٢٩.

الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾[١].

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[٢].

﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٣].

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾[٤].

وكما هو واضح من هذه الآيات، فإنّ الوعد الإلهيّ الّذي تضمّنته هذه الآيات، ليس هو التمكين الإلهيّ بإقامة دولة إسلاميّة صالحة على مساحة محدودة من الأرض، كالّذي تحقّق بالفعل في عصر الرسول ﷺ، ومن بعده في عصر الأئمّة من خلفائه الصالحين، وإنّما الوعد الإلهيّ الّذي أصحرت به هذه الآيات هو: «أن يُظهر دينه على الدِّين كلّه»، و«أن يرث عباد الله الصالحون الأرض كلّها»، و«أن

---

(١) سورة النور: ٥٥.

(٢) سورة الأنبياء: ١٠٥.

(٣) سورة الأعراف: ١٢٨.

(٤) سورة الصف: ٩.

يحكم المتّقون الأرض بكلّ رحبها»، و«أن يُستخلف المؤمنون العاملون بالصالحات، في الأرض استخلافاً يتمكّنون فيه من إقامة الدين الإسلاميّ عليها بمشارقها ومغاربها».

وهذه غاية لم يقدَّر لها أن تولد، وأن تبصر الوجود حتّى اللّحظة الّتي نحن فيها؛ فهي مرحلة قادمة، عبّرنا عنها بالمرحلة الثانية من الاستخلاف الإلهيّ، وهي أهمّ وأوسع بكثير من الاستخلاف الإلهيّ الأوّل. وبطبيعة الحال، فهي تستدعي دورات تأهيليّة أصعب بكثير من الدورة التأهيليّة الأولى الّتي تأهّلت فيها المجموعة المؤمنة بالإسلام، وبقيادة رسول الله ﷺ للاستخلاف الجزئيّ المحدود الخاصّ بمنطقة معيّنة من الأرض؛ هي الجزيرة العربيّة، وما والاها.

فلم يكن بدّ - وفقاً لسنّة الابتلاء الإلهيّة - أن تخوض الأمّة غمار مرحلة قاسية من الابتلاء، تؤهّلها للقيام بدور الأمّة القائدة لسائر الأمم في إقامة مجتمع السلام والعدل العالميّ الّذي يعمّ مشارق الأرض ومغاربها، وبها يتحقّق وعد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بوراثة الصالحين للأرض.

وهكذا كان، فقد دخلت الأمّة بعد رحيل رسول الله ﷺ دورات قاسية وشديدة من الابتلاء الجديد الّذي وعدها الله به؛ إذ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ

الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُواْ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[1].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ. لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ٣٧ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ ٣٨ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[2].

﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[3].

﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ١٤١ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ

---

(١) سورة آل عمران: ١٧٩.

(٢) سورة الأنفال: ٣٦-٣٩.

(٣) سورة العنكبوت: ٢-٣.

الصَّابِرِينَ﴾[١].

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[٢].

هذه الآيات وأمثالها صريحة في أنّ سنّة الابتلاء في أمّة محمّد ﷺ مستمرّة حتّى بلوغها المرحلة الّتي يتميّز فيها المؤمنون المخلصون عن المنافقين، والانتهازيين، والمصلحيّين، من أتباع الدنيا، وضعفاء الإيمان، والمستأكلين بالدّين. وعندما يتحقّق التمييز الكامل، والإفراز التامّ بين المجموعة المؤمنة الصالحة الّتي تثبت على إيمانها في جميع مراحل الابتلاء والاختبار، وبين العناصر المنافقة والمصلحيّة الانتهازيّة، ويتبيّن إخلاص المجموعة المؤمنة، ووفاؤها بالعهد مع الله ورسوله على الصعيد العمليّ، وبعد الاختبار الدقيق، عندئذٍ يأتي دور الاستخلاف الثاني؛ وهو الاستخلاف النهائيّ الّذي يتمّ معه إظهار الدين الإسلاميّ على الدّين كله، ويتحقّق الوعد الإلهيّ بوراثة الصالحين من أمّة محمّد ﷺ لجميع الأرض؛ كما قال سبحانه وتعالى:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا

---

(١) سورة آل عمران: ١٤٢ .

(٢) سورة التوبة: ١٦ .

عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[1].

والّذي يحدّثنا به واقع التاريخ الماضي للمجتمع المنتمي إلى الإسلام رسميّاً، أنّ هذه المجموعة فشلت - وللأسف - في المرحلة الثانية من سنّة الابتلاء؛ أعني: مرحلة ما بعد التمكين، فلم تستطع أن تجتاز مراحل الاختبار التأهيليّ لمرحلة الاستخلاف الكبرى (المرحلة الثانية) بنجاح، بل أصابها من الضعف والفتور والانصياع للأهواء والشهوات وحبّ الدّنيا مثل ما أصاب بني إسرائيل، وهو ما كان قد أخبر به رسول الله ﷺ حين أخبر عن مستقبل مظلم لأمّته يرتدّ فيها الكثيرون عن دينه، ويفشلون في الاختبار الإلهيّ الّذي لا مفرّ منه، وفقاً لسنّة الابتلاء الإلهيّة الّتي لابدّ منها في تأهيل الأمّة للاضطلاع بمهمّة الاستخلاف الكبرى، وقيادة أمم الأرض، لإقامة المجتمع العالميّ العادل على وجه الأرض.

ولقد أصاب بني إسرائيل الذّل والفرقة بعد فشلها في اختبار الله لها في إيمانها وثباتها على طاعة الله ورسوله، وهو نفس ما أصيبت به أمّتنا من سوء الحال الّذي يشهد له ماضينا القريب، كما يشهد له الواقع المأساويّ الّذي تعيشه أمّة الإسلام في حاضرها من الذّلّ أمام أعدائها، وانقسامها على نفسها، وهوانها على أعدائها، واستباحتهم لها في أنفسها، وأموالها، وأرضها، ودارها، وثقافتها، وهويّتها، حتّى

(١) سورة الأنبياء: ١٠٥.

عادت الأمّة الّتي كان قد أعزّها الله بدينه ورسولهﷺ، أذلّ أمم الأرض جانباً، وأضعفها مناعة، وأرخصها دماً، وعرضاً، ومالاً.

ثمّ إنّ **الابتلاء ما بعد التمكين** على نوعين:

الأوّل: الابتلاء المادّيّ؛ وهو ما أشارت إليه الآية الكريمة:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾[1].

الثاني: الابتلاء المعنويّ؛ وهو الفتنة في الدّين، وتحريف نصوصه في اللفظ والمعنى، وتحريف مفاهيمه تفسيراً وتطبيقاً. وقد أشار إلى ذلك قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[2].

وقد مرّت الأمم السابقة - وخاصّة بنو إسرائيل - بهذين النوعين من الابتلاء:

أمّا **الابتلاء المادّيّ** لبني إسرائيل، فقد أشارت إليه آيات كثيرة؛ منها: قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

---

(١) سورة البقرة: ١٥٥.

(٢) سورة العنكبوت: ٢-٣.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّن الْعَالَمِينَ ٢٠ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ إلى قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾[1].

أمّا **الابتلاء المعنويّ** فأشير إليه - أيضاً - في آيات كثيرة؛ منها: قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَآئِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[2].

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ إلى قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى ٨٣ قَالَ هُمْ أُولاء عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ٨٤ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ٨٥ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى

---

(١) سورة المائدة: ٢٠-٢٤.

(٢) سورة الأعراف: ١٣٨.

قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾[١].

﴿وَحَسِبُوا أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[٢].

وقد روى الرضيّ في نهج البلاغة أنّ رجلاً سأل أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام عن الفتنة؛ فقال عليه السلام:

«لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قوله: ﴿الم ١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾[٣] عَلِمْتُ أَنَّ الْفِتْنَةَ لا تَنْزِلُ بِنَا وَرَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله بَيْنَ أَظْهُرِنَا فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هَذِهِ الْفِتْنَةُ الَّتِي أَخْبَرَكَ اللَّهُ بِهَا فَقَالَ يَا عَلِيُّ إِنَّ أُمَّتِي سَيُفْتَنُونَ بَعْدِي فَقُلْتُ..» إلى قوله عليه السلام: «قَالَ صلى الله عليه وآله: يَا عَلِيُّ! إِنَّ الْقَوْمَ سَيُفْتَنُونَ بَعْدِي بِأَمْوَالِهِمْ وَيَمُنُّونَ بِدِينِهِمْ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَتَمَنَّوْنَ رَحْمَتَهُ وَيَأْمَنُونَ سَطْوَتَهُ وَيَسْتَحِلُّونَ حَرَامَهُ بِالشُّبُهَاتِ الْكَاذِبَةِ وَالْأَهْوَاءِ السَّاهِيَةِ..» إلى آخر الحديث[٤].

وقد نصب الله سبحانه وتعالى أنبيائه وأوصياءهم أعلاماً وهداة، يلجأ النّاس إليهم في الفتن، ويهتدون بهديهم في ظلمات الشبهات،

---

(١) سورة طه: ٨٠-٨٦.

(٢) سورة المائدة: ٧١.

(٣) سورة العنكبوت: ١-٢.

(٤) نهج البلاغة، الخطبة ١٥٤.

ويقتدون بهم في غمار المحن الفكريّة، والالتباسات، والتلبيسات. وهكذا كان هارون، وأوصياء موسى في قوم موسى من بعده، والأئمّة الطاهرون من أهل بيت رسول الله بعد رحيله ﷺ، فلو ثبتت الأمّة على هدى الأنبياء، واستقامت على طريقتهم، واتّبعت وأطاعت القادة الإلهيّين من أوصياء الأنبياء صلوات الله عليهم استطاعت أن تخرج من غمار الفتن والابتلاءات فائزة، مفلحة، مرفوعة الهام، شامخة الرأس، فتنعم بنعمة الاستخلاف الإلهيّ الأكبر، وتحيى في ظلّ شريعة العدل الإلهيّ في عيش رغيد، وحظّ سعيد؛ كما قال سبحانه وتعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[1].

لكنّ الأمم الّتي استخلفها الله الاستخلاف الأوّل؛ كأمّة بني إسرائيل، والمجموعة الأولى من أمّة محمّد ﷺ، فشلت في مرحلة الابتلاء التأهيليّ لمرحلة الاستخلاف الأكبر، وتاهت في غمار الفتنة بعد النبيّ ﷺ، ولم تتّبع هديه، ولا أطاعت القادة من أوصيائه وخلفائه، فجرى عليها قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾.

وهنا يأتي دور سنّة أخرى من سنن الله الاجتماعيّة، لتنفّذ بحقّ المجموعة المستخلفة بالاستخلاف الأوّل، بعد أن فشلت في مرحلة الاختبار التأهيليّ لمرحلة الاستخلاف الكبرى، والسنّة الأخرى هي

---

(١) سورة الأعراف: ٩٦.

«سنّة الاستبدال».

رابعاً: سنّة الاستبدال

هذه السنّة هي السنّة الّتي تمهّد لتنفيذ سنّة الاستخلاف في مرحلتها الثانية الكبرى الّتي يتمّ فيها استقرار مجتمع العدل على مساحة الأرض كلّها، وقيام دولة الصالحين.

وسنّة الاستبدال هي السنّة الإلهيّة الّتي يتمّ بموجبها استبدال الأمّة المستخلفة بالاستخلاف الأوّل - بعد فشلها في مرحلة الابتلاء والاختبار التأهيليّ للخلافة الكبرى - بأمّة أخرى ثابتة في إيمانها، صلبة في إرادتها، قويّة في عزيمتها، لا تهون أمام أعداء الله مهما كثرت عِدّتهم، ولا تضعف في عرصات المواجهة معهم مهما اشتدّت وقويت عُدّتهم، وقد وصفها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مخبراً عنها قائلاً:

﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾[1].

---

(١) سورة المائدة: ٥٤.

وقد جاء التأكيد على سنّة الاستبدال هذه في آيات متعدّدة من القرآن الكريم منها الآية الآنفة الذكر، ومنها قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ:

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾[١].

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾[٢].

﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾[٣].

﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾[٤].

﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾[٥].

وعدم النفر في هذه الآية يعني عدم النفر للجهاد، وهو يعني نكث العهد مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ، ونقض ميثاق النصرة الّذي أخذه على المؤمنين؛ إذ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ:

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي

---

(١) سورة محمّد: ٣٨.

(٢) سورة النساء: ١٣٣.

(٣) سورة الأنعام: ٨٩.

(٤) سورة الأنعام: ٨٩.

(٥) سورة التوبة: ٣٩.

التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[1].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - واصفاً المؤمنين الثابتين على عهدهم مع الله - :

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾[2].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - واصفاً المنافقين الناكثين لعهدهم مع الله - :

﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً ١٢ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً ١٣ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ١٤ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُولًا﴾[3].

وقد سبق بنو إسرائيل إلى نكث هذا الميثاق مع القيادة الإلهيّة في ما أشار إليه القرآن الكريم إذ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ

---

(١) سورة التوبة: ١١١.

(٢) سورة الأحزاب: ٢٣.

(٣) سورة الأحزاب: ١٢-١٥.

فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكاً وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِّن الْعَالَمِينَ ٢٠ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ إلى قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَداً مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ٢٤ قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾[1].

وهكذا، نقضت بنو إسرائيل ميثاق النصرة مع الله والقيادة الإلهيّة، فأصابها الهوان والذّل، وعوقبت من الله عقاباً شديداً، أشار إليه ربّنا في كتابه، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ إلى قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً ١٦٠ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيماً﴾[2].

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ

---

(١) سورة المائدة: ٢٠-٢٥.

(٢) سورة النساء: ١٥٥-١٦١.

الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾[١].

﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ١٦٥ فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ ١٦٦ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٢].

وقد جرت سنّة الاستبدال على بني إسرائيل، فسلبها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما آتاها من العزّة والملك، فأبدلهم عن ذلك ذلاً وهواناً؛ إذ قال:

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء﴾[٣].

غير أنّ المجموعة الأولى من أمّة نبيّنا ﷺ لم تثبت هي الأخرى على عهدها مع الله، فخذلت رسول الله ﷺ بعد رحيله، وقعدت عن نصرة خلفائه وأوصيائه عليهم السلام، فسلبها الله عزّها الأوّل، وأبدلها بذلّ، وهوان، وفرقةٍ، وشتات، بعد ما نكثت عهد الطاعة والنصرة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقد بدت بوادر نقض ميثاق النصرة مع الله جليَّة في ما أبدته

---

(١) سورة المائدة: ١٣.

(٢) سورة الأعراف: ١٦٥-١٦٧.

(٣) سورة آل عمران: ٢٦.

تلك المجموعة من خذلان لأمير المؤمنين عليه السلام، وتقاعس عن نصرته، ظهر في ما حكاه لنا الحديث والتاريخ من شكاواه عليه السلام عن ذلك الجيل من الأمّة؛ فمنها: قوله صلوات الله عليه:

«فنَظَرْتُ فإِذا لَيْسَ لِي مُعِينٌ إِلّا أَهْلُ بَيْتِي، فضَنِنْتُ بِهِمْ عَنِ الْمَوْتِ، وَأَغْضَيْتُ عَلى الْقَذى، وَشَرِبْتُ عَلى الشَّجَا، وَصَبَرْتُ عَلى أَخْذِ الْكَظَمِ، وَعَلى أَمَرَّ مِنْ طَعْمِ الْعَلْقَمِ»[1].

وقال صلوات الله عليه:

«أَلا وَإِنّي قَدْ دَعَوْتُكُمْ إِلى قِتالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لَيْلًا وَنَهاراً وَسِرّاً وَإِعْلاناً، وَقُلْتُ لَكُمْ: اغْزُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَغْزُوكُمْ، فَوَاللهِ ما غُزِيَ قَوْمٌ قَطُّ فِي عُقْرِ دارِهِمْ إِلّا ذَلُّوا، فَتَواكَلْتُمْ وَتَخاذَلْتُمْ..» إلى آخر الخطبة[2].

وقال صلوات الله عليه - مخاطباً جيل الخذلان من معاصريه -:

«أَيُّهَا النّاسُ الْمُجْتَمِعَةُ أَبْدانُهُمْ، الْمُخْتَلِفَةُ أَهْواؤُهُمْ، كَلامُكُمْ يُوهِي الصُّمَّ الصِّلابَ، وَفِعْلُكُمْ يُطْمِعُ فِيكُمُ الْأَعْداءَ، تَقُولُونَ فِي الْمَجالِسِ كَيْتَ وَكَيْتَ، فَإِذا جاءَ الْقِتالُ قُلْتُمْ حِيدِي حَيادِ ما عَزَّتْ دَعْوَةُ مَنْ دَعاكُمْ، وَلا اسْتَراحَ قَلْبُ مَنْ قاساكُمْ، أَعالِيلُ بِأَضالِيلَ..» إلى أن قال صلوات الله عليه: «أَيَّ دارٍ بَعْدَ دارِكُمْ

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ٢٦ .

(٢) المصدر نفسه، الخطبة: ٢٧ .

تَمْنَعُونَ؟! وَمَعَ أَيِّ إِمَامٍ بَعْدِي تُقَاتِلُونَ؟! الْمَغْرُورُ - وَاللَّهِ - مَنْ غَرَرْتُمُوهُ، وَمَنْ فَازَ بِكُمْ فَازَ بِالسَّهْمِ الْأَخْيَبِ، وَمَنْ رَمَى بِكُمْ فَقَدْ رَمَى بِأَفْوَقَ نَاصِلٍ، أَصْبَحْتُ - وَاللَّهِ - لا أُصَدِّقُ قَوْلَكُمْ، وَلا أَطْمَعُ فِي نَصْرِكُمْ، وَلا أُوعِدُ الْعَدُوَّ بِكُمْ، مَا بَالُكُمْ؟! مَا دَوَاؤُكُمْ؟! مَا طِبُّكُمْ؟!» إلى آخر الخطبة[1].

وقد بلغ تخاذل الأمّة عن نصرة الله ورسوله ﷺ ذروته في حادثة كربلاء؛ إذ هبّت القيادة الإلهيّة المتمثّلة في الحسين عليه السلام لنصرة دين الله، والعمل بسنّة رسوله ﷺ، فبقي صلوات الله عليه قليل الناصر، محاطاً بأعداء الله، حتّى استشهد صلوات الله عليه مجاهداً صابراً محتسباً في ثلّة قليلة العدد من شيعته الأوفياء بعهدهم مع الله، والثابتين على ميثاق الطاعة والنصرة لأولياء الله.

هذا، وقد جاءت الإشارة إلى ما سيؤول إليه أمر هذه الأمّة من خذلان القيادة الإلهيّة، والتقاعس عن نصرتها، وما سوف ينتهي إليه هذا الخذلان من تنفيذ سنّة الاستبدال بشأن المجموعة المتخاذلة، وتبديلها بأمّة أخرى ثابتة على نصرتها للقيادة الإلهيّة، ووفيّة بميثاق النصرة لله؛ إذ قال سبحانه وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ

(١) المصدر نفسه، الخطبة رقم ٢٩، ص ٩٥-٩٧.

الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ٣٨ إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

ثمّ إنّ تنفيذ سنّة الاستبدال، لا يتحقّق بصورة دفعيَّة، وضمن عمليّة إعجازيّة، أو حدث غير مألوف تخرق فيه السنن الكونيّة، بل إنّما تنفّذ سنّة الاستبدال بصورة تدريجيّة، ومن خلال تغيّرات وتطوّرات اجتماعيّة خاضعة لسنّة إلهيّة أخرى من سنن التطوّر الاجتماعيّ؛ وهي: «سنّة التداول».

(١) سورة التوبة: ٣٨-٣٩.

خامساً: سنّة التداول

وتعني سنّة التداول أنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُديل من الأمّة الّتي فشلت في الأختيار التأهيليّ للاستخلاف الإلهيّ العامّ، فتنتقل السلطة والمُكنة إلى أمّة غيرها، وهي أيضاً تمرّ بسنّة الابتلاء والاختبار، ثمّ إن فشلت هي الأخرى حلّت محلّها أمّة أخرى، أُديل لها من الأمّة السالفة، وهكذا، يستمرّ التداول إلى أن يصل الدور إلى الأمّة الّتي تختار الإيمان والصبر عليه، فيختارها الله للاستخلاف في الأرض، وتجري بحقّها سنّة الاختيار والاستخلاف. قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ١٣٩ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ١٤٠ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ١٤١ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾[1].

---

(١) سورة آل عمران: ١٣٩-١٤٢.

﴿أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾[1].

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ١٣ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[2].

﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ٣ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ٤ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾[3].

وسنّة التداول سنّة تتوسّط بين الاستخلاف والاستبدال، فحينما تفشل أمّة مستخلفة في الاختبار التأهيليّ لمرحلة الاستخلاف الكبرى، وتنفّذ في حقّها سنّة الاستبدال، لا يأتي دور الاستبدال إلّا بعد تداول السلطة بين أجيال متعدّدة من البشر، وتمكين كلّ منها في الأرض واحدة تلو الأخرى، مطالَبة بأداء مسؤوليّاتها الكبرى إزاء

---

(١) سورة الأنعام: ٦.

(٢) سورة يونس: ١٣-١٤.

(٣) سورة الحجر: ٣-٥.

ميثاق الطاعة والنصرة، فأيّة واحدة منهم آمنت بالله، ووفت بميثاق الطاعة والنصرة للقيادة الإلهيّة، أدام الله لها التمكين، واختارها للاستخلاف الكبير، وتمّ تأهيلها لقيادة العالم في دولة عالميّة عادلة تحكم الأرض كلّها، وتمّ استبدال الأمّة المستخلفة السالفة بها، وأوكل إليها أمر قيادة الأمم لإقامة المجتمع العالميّ العادل على الأرض.

إنّ الأمّة الّتي تختارها اليد الإلهيّة، لتقوم بدور الأمّة الطلائعيّة في المجتمع البشريّ، فتقود سائر أمم الأرض لإقامة المجتمع العالميّ العادل هي «الأمّة الشاهدة»، وهي «الأمّة الوسط»، وهي إنّما يتمّ اختيارها من خلال سنّة التداول الّتي تمرّ فيها أمم الأرض كلّها بالمختبر التأهيليّ الّذي يكشف حقائق الأمم وجواهرها، ويُمحَّص فيه المؤمنون ضمن عمليّات اختبار طويلة الأمد، تتبيّن من خلالها صلاحيّة المجموعة المؤمنة المؤهّلة لإمامة الأرض، والقيام بدور الأمّة المستخلفة بالخلافة الكبرى، لإقامة العدل في عامّة مناطق الأرض.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء﴾[1].

---

(١) سورة آل عمران: ١٤٠.

هؤلاء الشهداء هم أولئك الّذين جاءت الآية الأخرى لتصف دورهم القياديّ لأمم الأرض؛ إذ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[1].

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ﴾[2].

هذه الشهادة، هي شهادة المجموعة الطلائعيّة الّتي تقتدي بها الأمم، لإقرار مجتمع العدل على وجه الأرض، والمثل الأعلى لهذه المجموعة الطلائعيّة: القادة الإلهيّون الّذين بطاعتهم ونصرتهم تفوز المجموعة الطلائعيّة في مرحلة الاختبار التأهيليّ، وهم الأئمّة الطاهرون من أوصياء رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ الّذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، وجعل مودّتهم أساساً لدينه، وجعل طاعة الجماعة المؤمنة ونصرتها لهم الأداة الوحيدة لرقيّها، وكمالها، وتأهّلها، لقيادة أمم الأرض، وتبوّئها موقع الأمّة الوسط الشاهدة على النّاس أجمعين.

والأمّة الوسط هنا، بمعنى الأمّة العادلة الّتي تتميّز عن غيرها من

---

(١) سورة البقرة: ١٤٣.

(٢) سورة الحج: ٧٨.

الأمم المرشَّحة لموقع القيادة الكبرى، بأنّها لا تسلك طريق التفريط في طاعة القيادة الإلهيّة ونصرتها، كما انتهى إليه أمر المجموعة الأولى من بني إسرائيل - وهم اليهود - ، فحلّ عليهم الغضب الإلهيّ، وأصابتهم الذلّة الكبرى، ولا طريق الإفراط والمغالاة الّتي سلكته المجموعة الثانية من بني إسرائيل - وهم النصارى - الّذين خالفوا بدورهم القيادة الإلهيّة، وعصوها، فضلّوا عن السبيل، وتاهوا. وإلى هذا المصير المشوم لهاتين الجماعتين أشارت الآيتان الكريمتان:

﴿فبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ١٣ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾[1].

فالأمّة الطلائعيّة هي الأمّة الّتي لا تسلك أيّاً من هذين الطريقين؛ لا طريق «المغضوب عليهم»، وَلا طريق «الضالّين»:

﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستقِيمَ ٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّآلِّينَ﴾[2].

---

(١) سورة المائدة: ١٣-١٤.

(٢) سورة الفاتحة: ٦-٧.

إنّ الأمّة المصطفاة لتحمُّل أعباء إمامة الأمم نحو تحقيق خلافة الله الكبرى على الأرض، تسلك الطريق الوسط، وتثبت على الصراط المستقيم الّذي هو صراط الإمامة المعصومة من خلفاء محمّد ﷺ، وأوصيائه الطيبين الطّاهرين الّذين أنعم الله عليهم، ودلّت عليهم الآيات الكثيرة من القرآن، فقالت:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ٥٥ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾[1].

﴿أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾[2].

﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيرًا﴾[3].

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾[4].

وغير ذلك من الآيات.

---

(١) سورة المائدة: ٥٥-٥٦.

(٢) سورة النساء: ٥٩.

(٣) سورة النساء: ١١٥.

(٤) سورة التوبة: ١٦.

ودلّت عليهم سنّة الرسول ﷺ، مفسّرة لآيات الكتاب الحكيم، وكاشفة لمعانيها، واضعة فيها النقاط على الحروف؛ إذ قال ﷺ:

«إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمُ الثَّقَلَيْنِ أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ الهُدَى وَالنُّورُ فَخُذُوا بِكِتَابِ اللَّهِ وَاستَمسِكُوا بِهِ.. وأَهْلُ بَيْتِي»[(١)].

« إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمُ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي أَحَدُهُمَا أَعظَمُ مِنَ الآخَرِ كِتَابُ اللَّهِ، حَبْلٌ مَمدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرضِ، وَعِتْرَتِي أَهْلُ بَيْتِي، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ، فَانظُرُوا كَيفَ تَخلِفُونِي فِيهِمَا»[(٢)].

«مَثَلُ أَهْلِ بَيْتِي كَسَفِينَةِ نُوحٍ مَنْ رَكِبَهَا نَجَا وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا غَرِقَ»[(٣)].

«اُدعُوا لِيْ، اُدعُوا لِيْ، فَقَالَت صَفِيَّة [زوج الرسول ﷺ]: مَن يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: أَهلَ بَيتِي؛ عَلِيّاً، وَفَاطِمَةَ، وَالحَسَنَ، وَالحُسَينَ. فَجِيءَ بِهِم، فَأَلْقَى عَلَيْهِمْ كِسَاءَهُ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيهِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ آلِيْ، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وآلِ مُحَمَّدٍ، وَأَنزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ

---

(١) صحيح مسلم، باب فضائل عليّ بن أبي طالب.

(٢) صحيح الترمذيّ، ج١٣، ص٢٠١.

(٣) مستدرك الصحيحين، للحاكم النيسابوريّ، ج٢ ص٣٤٣.

وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[١]»[٢].

والرواية روتها أمّ المؤمنين عائشة بلفظ آخر، وروتها أمّ المؤمنين أم سلمة أيضاً، فقالت:

«نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي بَيْتِي: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[٣]، وَفِي الْبَيْتِ سَبْعَةٌ: جِبرَئِيلُ وَمِيكَائِيلُ وَعَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ وَالحَسَنُ وَالحُسَينُ، وَأَنَا عَلَى بَابِ الْبَيْتِ، قُلتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَلَسْتُ مِن أَهلِ البَيتِ؟ قَالَ: إِنَّكِ إِلَى خَيرٍ، إِنَّكِ مِن أَزوَاجِ النَّبِيِّ»[٤].

وقال رسول الله ﷺ:

«لا يَزَالُ هَذَا الدِّينُ قَائِماً، حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ، أَوْ يَكُونَ عَلَيْكُمُ اثْنَا عَشَرَ خَلِيفَةً، كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ»[٥].

ومن هنا جاءت آيات سورة الحمد الّتي هي أمّ القرآن، والّتي لا صلاة إلاّ بها، تحمل في طيّها طلب المؤمنين من ربهم في جميع صلواتهم

---

(١) سورة الأحزاب: ٣٣.

(٢) مستدرك الصحيحين، ج٣، ص١٤٧.

(٣) سورة الأحزاب: ٣٣.

(٤) سنن الترمذيّ، ومسند أحمد ٦: ٣٠٦.

(٥) صحيح مسلم، باب الناس تبع قريش من كتاب الإمارة، وفي صحيح البخاريّ، كتاب الأحكام ٤: ١٦٥.

هداية الصراط المستقيم، وجعلت الدليل عليه أولئك ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾[١]، وفي مقدّمتهم الطليعة الأولى من عباد الله الصالحين؛ وهم محمّد وآل محمّد صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ:

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾[٢].

ولقد بيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في كتابه أنّ سنّة التداول قد نُفّذت بحقّ الأمم الأخرى؛ كبني إسرائيل الّتي أُديل لها من عدّوها، بعد أن اختارها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على العالمين، فقال:

﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[٣].

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[٤].

غير أنّ هذه الأمّة لمّا فشلت في سنّة الاختيار والتأهيل أُديل منها أيضاً، وجيء بأمّة أخرى؛ وهي أمّة محمّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فاختارها الله للاستخلاف، وجاء لها الدور؛ لكي تختبر هي الأخرى لدور

---

(١) سورة النساء: ٦٩.

(٢) سورة الفاتحة: ٥-٧.

(٣) سورة الدخان: ٣٢.

(٤) سورة البقرة: ٤٧.

الاستخلاف العامّ.

ثمّ إنّ سنّة التداول هذه الّتي تتمّ من خلالها أكبر عمليَّة إفراز في التاريخ البشريّ، عمليَّة إفراز المجموعة الطلائعيّة الّتي تثبت كفاءتها وأهليّتها للاضطلاع بمهمّة الأمّة المطيعة الناصرة للقيادة الربانيّة، والشاهدة على سائر الأمم، والمستخلفة بالاستخلاف الأكبر، سنّة التداول هذه قد تطول قروناً من الزّمن، فتأتي أمّة وتروح أخرى إلى أنْ تظهر الأمّة الطلائعيّة الّتي تؤمن بالله ورسوله، وتطيع القيادة الإلهيّة، وتنصرها، وتثبت على ذلك كلّه، مهما كانت المشاكل، وأيّاً كانت العقبات. قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ﴾[1].

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء﴾[2].

ثمّ إنّ هذا التداول إنّما يتمّ ضمن سنّتين إلهيّتين أُخريين؛ هما: «سنّة التبديل والتغيير»، و«سنّة الإمهال والأخذ».

---

(١) سورة المائدة: ٥٤.

(٢) سورة آل عمران: ١٤٠.

سادساً: سنّة التبديل والتغيير

وتعني سنّة التبديل والتغيير أنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حين يمنّ على أمّة مّا بالتمكين والقوّة، فينعم عليها بنعمه العامّة، ثمّ يتمّها بنعمته التّامّة الّتي هي نعمة القيادة الإلهيّة الّتي بها تنال الأمّة عزّة الدنيا والآخرة، وسعادتها، والفوز والفلاح فيهما، يتحتّم على هذه الأمّة - وفقاً للواجب العقليّ، وما يحكم به الضمير الإنسانيّ - أن تشكر الله على نعمه هذه، وبخاصّة نعمته التامّة الكبرى الّتي هي نعمة القيادة الإلهيّة، وشكر كلّ نعمة إنّما هو:

أوّلاً: بالإفادة منها، وعدم تعطيلها وإهمالها .

ثانياً: بالإفادة منها في موضعها اللائق بها، وبالطريقة المناسبة.

وليس شكر النعمة التامّة الكبرى الّتي هي نعمة القيادة الإلهيّة إلّا بالسمع وبالطاعة لها، وبنصرتها، وعدم خذلانها.

فإن شكرت الأمّة نعمة الله عليها، وأحسنت الإفادة منها، زاد الله من نعمه عليها، وفتح عليها بركات السماء والأرض، وأعزّها وسمى بها إلى أعلى درجات الفوز والفلاح.

ولكنّها إن كفرت بنعمة الله، وخاصّة نعمة القيادة الإلهيّة الكبرى - وهذا ما يعبّر عنه القرآن الكريم بـ «تبديل النعمة» - سلبها الله نعمه، وضرب عليها الذّل والمسكنة، وباءت بغضب من الله، ونزل عليها العذاب. قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[1].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ٢٨ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾[2].

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ٥٢ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[3].

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾[4].

وهكذا تجري سنّة التغيير الّتي تعني تغيير النعمة، وزوالها، وحلول النقمة الإلهيّة محلّها، وذلك بسبب تبديل النعمة؛ أي تعطيلها، وكفرانها، وعدم وضعها موضعها، وعدم الإفادة منها

---

(١) سورة إبراهيم: ٧.

(٢) سورة إبراهيم: ٢٨-٢٩.

(٣) سورة الأنفال: ٥٢-٥٣.

(٤) سورة الرعد: ١١.

بالطريقة الصالحة المناسبة.

وقد أشار الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ إلى تنفيذ سنّة التغيير هذه على أمّةٍ وصف حالها بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ:

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ١١٢ وَلَقَدْ جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾[1].

والظاهر أنّ المراد بـ «الرّسول» هنا: هو خاتم المرسلين وسيّدهم محمّد ﷺ، وأنّ المراد بـ «القرية»: مدينة الإسلام الّتي أعزّها الله بالإسلام، وأعلى كعبها بطاعة النبيّ ﷺ، وفضّلها على سائر المدن بنصرة رسول الله ﷺ؛ فقد وُصف الرسول هنا بأنّه من القوم الّذين أرسل إليهم، وهذا ما وصف الله به خاتم النبيّين محمّداً ﷺ في أكثر من آية؛ إذ قال:

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾[2].

---

(١) سورة النحل: ١١٢-١١٣.

(٢) سورة آل عمران: ١٦٤.

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾[١].

فمدينة الإسلام الأولى الّتي أعزّها الله بنعمته الكبرى، بدّلت نعمة الله بالإعراض عن رسول الله ﷺ، وخذلانه، وعصيانه، بعد أن خضعت لحكم الطغاة من الأمويّين، وأقرانهم، وأمثالهم، فغير الله نعمتها عليها، وسلبها عزّها الأوّل، فتعرّضت للعذاب، واستباحة الدماء والأموال، حتّى آل أمرها إلى ما نشاهده اليوم.

---

(١) سورة الجمعة: ٢.

سابعاً: سنّة الإمهال والأخذ

وتعني سنّة الإملاء والإمهال أنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يملي للأمّة الّتي نقضت عهدها معه، وفشلت في الاختبار التأهيليّ، فيمكّنها من مواهب الأرض، ويمتّعها بما يمكن لها أن تتمتّع به من خيرات الأرض، ويفسح لها المجال لكي يعلو على السطح كلّ ما تنطوي عليه من سريرة الشرّ، ولكي تظهر كلّ ما يكمن في داخلها من نوايا الرذيلة والإجرام، حتّى إذا تبيّن ما انطوت عليه من هويّة الإجرام والشرّ، جاءها العذاب الإلهيّ، فنفّذت في حقّها سنّة الله الأخرى؛ وهي سنّة الأخذ. قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِىءَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾[1].

ويأتي تنفيذ سنّة الإمهال والإملاء بعد تنفيذ سنّة التداول، وقبل تنفيذ سنّة الاستبدال، فإنّ الجماعة المؤمنة حين تتخاذل عن نصرة

---

(١) سورة الرعد: ٣٢.

القيادة الإلهيّة، وتنقض عهدها معها في الطاعة والنصرة، تُنَفَّذ في حقّها سنّة التداول، فيدال منها، وتنتقل السلطة والقوّة منها إلى أعداءها المتربّصين بها، فإذا أُديل لأعدائها منها، واستقرّت قبضة أعدائها على السلطة، فسح الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - هذه المرَّة - لهؤلاء المتسلّطين المجال، وأمهلهم، وأملى لهم - كما أملى لمن سبقهم - ؛ لكي يظهروا ما ينطوون عليه من الخبث المبطّن، ولكي يعلو منهم على السطح ما أخفوه من سريرة الشرّ، ومكنون الإجرام. قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ٤٢ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ٤٣ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ إلى قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾[1].

ولا يطول الأمر بهذه الأمّة المُملى لها كثيراً، بل تجري بحقّها - أيضاً - سنّة الأخذ، فتأتي أمّة أخرى لكي تختبر أيضاً هي الأخرى، فإن لم تستجب لدعوة الأنبياء، فجحدتهم من أوّل الأمر، أو آمنت بهم، وأطاعتهم بدءاً، ثمّ خذلتهم في منتصف الطريق، أملى الله لها - أيضاً - في البداية، ثمّ ينفّذ في حقّها سنّة الأخذ، فيعاقبها على جرائمها، ويأخذها أخذ عزيز مقتدر. قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

---

(١) سورة الحج: ٤٢-٤٨.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ٩٤ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ آبَاءنَا الضَّرَّاء وَالسَّرَّاء فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾[1].

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[2].

﴿وَالسَّمَاء ذَاتِ الرَّجْعِ ١١ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ١٢ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ١٣ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ١٤ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ١٦ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾[3].

وكيد الكافرين هو ما يعبّؤونه من الطاقات والإمكانيّات، وما يقومون به من التخطيط، وما يمارسونه من الجهد والسعي في سبيل إجهاض الحقّ، وإخفاء نوره؛ ولكن هناك كيداً إلهيّاً يخفى على الظالمين، وهو ما تخفيه لهم الأيّام من سنّة الإمهال والإملاء الّتي تعقبها سنّة الأخذ. قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ لَن يَضُرُّواْ اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٧ وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ

---

(١) سورة الأعراف: ٩٤-٩٥.

(٢) سورة هود: ١٠٢.

(٣) سورة الطارق: ١١-١٧.

لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[1].

ولقد نُفذّت هذه السنّة - أيضاً - بحقّ المجموعة الأولى من أمّة محمّدﷺ الّتي خذلت رسول اللهﷺ في الطاعة والنصرة، وولّت ظهرها لمواثيقها، وعهودها مع الله ورسوله، فأملى الله لها في بداية الأمر، ثمّ جاءت سنّة الأخذ، فسلبت ما كانت عليه من السلطة والمنعة والمهابة والقوّة، وأبدلت بالعزّة ذلاً، وبالقوّة ضعفاً، وبالغنى فقراً، وبالوحدة شتاتاً، حتّى عادت أذلّ أممّ الأرض بينها، مستباحاً حريمها، محتلاً أرضها، رخيصاً دمها، منهوباً مالها، مفرّقاً جمعها.

ثمّ إنّ سنّة الأخذ بعد الإملاء والإمهال، إنّما تنفّذ بحقّ الأمّة الخارجة عن طاعة الله، ونصرة أوليائه، ضمن سنّة أخرى من سنن التطوّر الاجتماعيّ؛ وهي «سنّة الاستدراج».

---

(١) سورة آل عمران: ١٧٧-١٧٨.

ثامناً: سنّة الاستدراج

تعني سنّة الاستدراج أنّ الأمّة الناكثة لعهدها مع الله ورسوله، حين يُملى لها - وقبل الأخذ - تُستدرج في مراحل الغواية والسقوط، فتنحطّ من مرحلة إلى مرحلة أسفل منها، ومنها إلى غيرها، ممّا هو أشدّ منها انحطاطاً وسقوطاً إلى أن تبلغ مرحلة الحضيض الّتي تبلغ فيها غاية الطغيان، فتتجاوز فيها كلّ الحدود، وتنتهك فيها كلّ حرمة، وتسحق فيها كلّ حقّ. قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُون ٤٤ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾[1].

﴿وَالَّذِين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُون ١٨٢ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾[2].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - موضّحاً الطريقة الّتي يتمّ بها الاستدراج - :

---

(١) سورة القلم: ٤٤-٤٥.

(٢) سورة الأعراف: ١٨٢-١٨٣.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٩ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِؤُونَ﴾[1].

فالاستدراج يعني: أنّ الأمّة الّتي تعرض عن هداية الأنبياء، وتولّي ظهرها للقيادة الإلهيّة، تبدأ في انتكاستها باستباحة الظلم الصغير، وتعصي القيادة الإلهيّة في أوامرها الّتي قد لا يبدو في الوهلة الأولى أنّها ذات خطورة عالية، وقد لا يبدو أنّها تهدّد مصير الأمّة وحياتها، وإيمانها، وطاعتها للقيادة، تهديداً أساسيّاً، فإذا اعتادت الأمّة على معصية القيادة في مثل هذه الأمور، تجرّأت على أعظم منها، ثمّ بدأ حبّ الجاه وحبّ الدّنيا بالتغلغل في قلوبها تغلغلاً تدريجياً، وببدأ حبّ الله ورسوله بالذبول والذوبان في داخلها شيئاً فشيئاً، حتّى ينتهي الأمر - تدريجيّاً - بالأمّة الّتي كانت تحب الله ورسوله حباً أشدّ من حبّها لأيّ شيء آخر ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[2] أن يتضاءل في أنفسها حب الله وحبّ رسوله، حتّى يعود حبّ الدنيا والجاه يطغى في داخلها على حبّ الله ورسوله، ويستمرّ تضاؤل حبّ

---

(١) سورة الروم: ٩-١٠.

(٢) سورة البقرة: ١٦٥.

الله ورسوله، واشتداد حبّ الدنيا والجاه في قلوب هذه الأمّة المنكوسة على رأسها، المغلوبة على أمرها، حتّى يبلغ بها الأمر إلى أن يزول حبّ الله ورسوله من قلبها نهائيّاً، ويهيمن حبّ الدنيا والهوى والجاه على قلوبها هيمنة تامّة، إلى أن تتمّ انتكاستها، فتنقلب على وجهها، وتعود مبغضة لله ورسوله، عدوّة لهما، محبّة لأعداء الله ورسوله، خاضعة لولايتهم، منعطفة إلى جانبهم، ضدّ جبهة المؤمنين من أولياء الله، وأحباء الرسول وأتباعه، وعلى رأسهم القادة الإلهيّين.

وهنا، تُصاب هذه الأمّة الخاسرة المرتدّة على أعقابها بالجرأة على الله، وعلى رسوله، وعلى القيم الإنسانيّة كلّها، فتكذّب بآيات الله كلّها، أو تحرّفها، أو تكتمها، وتقتل النبيّين وأولاد النبيّين، وتقتل الّذين يأمرون بالقسط من النّاس، وأضحت كل ما رأت سبيلاً للغيّ والطغيان اتّخذته سبيلاً، وكلّما رأت سبيلاً للهدى والعدل لم تتّخذه سبيلاً، بل أعرضت عنه، واتّخذت منه موقف العداء، وهذا بالضبط ما حلّ ببني إسرائيل قبل أن يحلّ بالمجموعة الأولى من أمّة محمّد ﷺ. قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بشأن بني إسرائيل:

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ

كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ﴾[١].

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[٢].

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾[٣].

وكم يؤلمنا حينما نجد أنّ الأمّة الإسلاميّة بعد رحيل قائدها الأعظم محمّد ﷺ، وخروجها عن طاعته، وقعودها عن نصرة أهل بيته صلوات الله عليهم، أُصيبت بنفس ما أصاب بني إسرائيل، من عصيان القيادة الإلهيّة، ثمّ سقوطها التدريجيّ إلى درجات سفلى من العصيان والطغيان، حتّى امتدّت يدها إلى قتل الطاهرين من أهل بيت رسول الله ﷺ، والصفوة من أبناءه وأتباعه، حتّى احمرّت من دمائهم آفاق الأرض، واصطبغت بها سهول بلاد المسلمين وصقاعها، فلم تجد أرضاً منها إلاّ وتحمل في ذاتها ذكريات أليمة من التنكيل بالصالحين، وإراقة دماء الطيّبين من آل رسول الله ﷺ وأتباعهم، وطردهم

---

(١) سورة الأعراف: ١٤٦.

(٢) سورة النساء: ١٥٥.

(٣) سورة البقرة: ٦١.

وسجنهم، والتشريد بهم، وظلّت كربلاء ورزيّة الحسين صلوات الله عليه وأهل بيته وأصحابه، النموذج الأفظع لانتهاك حرمة الله ورسوله، وارتداد الأمّة على أعقابها بعد رسول الله صلى الله عليه وآله.

ثمّ إنّ سنّة التداول ثمّ الاستدراج تستتبع سنّة اجتماعيّة أخرى هي «سنّة الإعزاز والإذال».

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

تاسعاً: سنّة الإعزاز والإذلال

هذه السنّة تقترن بسنّة الاستخلاف من جهة، وسنّة الاستبدال من جهة أخرى؛ فالأمّة الّتي يختارها الله للاستخلاف، ويمكّنها في الأرض، عندما تطيع القيادة الإلهيّة، وتنصرها، يمنّ الله عليها بالعزّة والغلبة. قال سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ٥٥ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾[1].

﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2].

﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ١٠٣ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ

---

(١) سورة المائدة: ٥٥-٥٦.

(٢) سورة آل عمران: ١٣٩.

وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ١٠٤ وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[١].

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ١٢٣ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُنزَلِينَ ١٢٤ بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ١٢٥ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾[٢].

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ١٤٦ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ١٤٧ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[٣].

وثواب الدنيا الّذي يناله هؤلاء المقاتلون مع النبيّ ﷺ، المطيعون

---

(١) سورة آل عمران: ١٠٣-١٠٥.

(٢) سورة آل عمران: ١٢٣-١٢٦.

(٣) سورة آل عمران: ١٤٦-١٤٨.

الناصرون له، هو الانتصار على الأعداء، والغلبة عليهم، وعزّة الدنيا، والقوّة والتمكين الإلهيّ، كلّ ذلك بفضل نصرتهم للقيادة الإلهيّة، وطاعتهم لها، ووفائهم بميثاق النصرة والطاعة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقد ورد التأكيد في القرآن العظيم على أنّ العزّة لله وحده، ولرسوله، وللمؤمنين. والظاهر أنّ المراد بـ «المؤمنين»: القيادة الإلهيّة من أوصياء النبيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ المعصومين المطهّرين؛ فإنّ كلمة ﴿المُؤْمِنِين﴾ أو ﴿المُؤْمِنُون﴾ أو ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ كلّما جاءت في القرآن الكريم معطوفاً على الله ورسوله، وشريكاً لهما في الآثار الشرعيّة، والأحكام الولائيّة، إنّما يراد بهم: أولئك المؤمنون الّذين تجب طاعتهم، ونصرتهم، والكون معهم، والوقوف إلى جانبهم، كما تجب طاعة الله ورسوله، وبذل النصرة لهما، والكون معهما. وهذا ما يؤكّده قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ﴾[1].

﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً﴾[2].

---

(١) سورة المائدة: ٥٥.

(٢) سورة النساء: ١١٥.

﴿أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾[١].

﴿وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾[٢].

فالمؤمنون الّذين لهم العزّة مع الله ورسوله، هم هؤلاء المؤمنون الّذين تجب طاعتهم إلى جانب طاعة الله والرسول، وهم القادة الإلهيّون الّذي استخلفهم رسول الله ﷺ بأمر من الله في أمّته، وجعلهم أولي الأمر الّذين تجب طاعتهم ونصرتهم، وهؤلاء هم أولئك المؤمنين الّذين أشارت إليهم الآية الكريمة:

﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[٣].

فالقوم الّذين سوف يأتي الله بهم ممّن وصفتهم هذه الآية، وهي الأمّة الإسلاميّة المختارة الّتي سوف يستبدل الله بها الأمّة الغابرة، ويستخلفها على الأرض بالاستخلاف الكبير، ويورثها الأرض، ويمكّنها فيها لإقامة العدل على ربوعها، هؤلاء القوم هم أولئك الّذين يطيعون الإمامة الإلهيّة، ويخضعون لقيادتها خضوعاً تامّاً:

---

(١) سورة النساء: ٥٩.

(٢) سورة النساء: ٨٣.

(٣) سورة المائدة: ٥٤.

﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ولا يعصونها في أمر أو نهي، وهذه الأمّة هي الّتي سوف تنال العزّة الدائمة، والغلبة الكاملة على الأعداء؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾[1].

فسنّة الإعزاز الإلهيّ هي السنّة الّتي بموجبها يعزّ الله عباده التابعين للقيادة الإلهيّة، والمطيعين لها؛ لأنّ العزة - حصراً - هي لله، والقيادة الإلهيّة في الأرض، المتمثّلة في الرسول وأوصيائه وخلفائه الصالحين عليهم السلام، فلا ينال العزَّ إلّا من أطاعهم، واتّبعهم، وانضمّ إلى زمرتهم، واصطفّ إلى جانبهم. قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾[2].

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ﴾[3].

---

(١) سورة المائدة: ٥٦.

(٢) سورة المنافقون: ٨.

(٣) سورة آل عمران: ٢٦.

﴿مَن كانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾[١].

﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيماً ١٣٨ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾[٢].

و﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ في هذه الآية - أيضاً - هم أولئك الّذين ذكرنا أنّهم مع الله ورسوله في الحكم سواءً، وهم الّذين تختصّ العزّة بهم وبالله وبرسوله، والمنافقون هم أولئك الّذين يؤثرون ولاية الكافرين على ولاية الله ورسوله وهؤلاء المؤمنين.

وإلى سنّة الإعزاز الإلهيّ هذه أشار الحسين صلوات الله عليه في ما أعلنه يوم عاشوراء في ما روي عنه صلوات الله عليه:

«أَلا وَإِنَّ الدَّعِيَّ ابْنَ الدَّعِيِّ قَدْ رَكَزَ بَيْنَ اثْنَتَيْنِ بَيْنَ السَّلَّةِ وَالذِّلَّةِ وَهَيْهَاتَ مِنَّا الذِّلَّةُ يَأْبَى اللَّهُ لَنَا ذَلِكَ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَحُجُورٌ طَابَتْ وَطَهُرَتْ وَأُنُوفٌ حَمِيَّةٌ وَنُفُوسٌ أَبِيَّةٌ مِنْ أَنْ نُؤْثِرَ طَاعَةَ اللِّئَامِ عَلَى مَصَارِعِ الكِرَامِ»[٣].

---

(١) سورة فاطر: ١٠.

(٢) سورة النساء: ١٣٨-١٣٩.

(٣) من خطاب الإمام الحسين عليه السلام أمام الجيش الأمويّ في كربلاء (عاشوراء ٦١ هـ). بحار الأنوار، ج٤٥، ص٨٣. راجع أيضاً: المختار من مقتل الحسين في بحار الأنوار، للمؤلّف، ص١٠٧.

هذا من سنّة الإعزاز الإلهيّ، وإلى جانب هذه السنّة، سنّة الإذلال الإلهيّ لأولئك الّذين آمنوا في بداية الأمر، وعاهدوا الله والرسول على الطاعة والنصرة، ثمّ نقضوا عهدهم مع الله، وولّوا ظهورهم لرسول الله وأوصيائه صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِم.

وقد أشار القرآن الكريم إلى سنّة الإذلال هذه، وضرب بني إسرائيل مثلاً لهذا الإذلال، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مشيراً إلى بداية أمر بني إسرائيل وما أكرمهم الله به من الإعزاز والغلبة على الأعداء:

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[1].

وهذه النعمة، وهذا التفضيل، إنّما أكرم الله بهما بني إسرائيل في أيّامها الأولى، أيّام طاعتها لله ورسوله، وهي الأيّام الّتي أشار إليها قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكاً وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِّن الْعَالَمِينَ﴾[2].

وهي الأيّام الّتي أشار إليها - أيضاً - قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

---

(١) سورة البقرة: ٤٧.

(٢) سورة المائدة: ٢٠.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ٥ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ٦ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[1].

فهذه هي أيّام الإعزاز الإلهيّ لبني إسرائيل، أعقبتها أيّام أخرى، ألمحت إليها الآية الأخيرة؛ إذ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[2].

فقد زاغت بنو إسرائيل:

﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[3].

فعصت الرسول، وانقلبت على أعقابها، حتّى آل بها الأمر إلى معاداة الله ورسله، وإلى قتل النبيّين، والفساد في الأرض، فسلبهم الله ذلك العزّ، ونزع منها الملك الإلهيّ؛ كما أشار إليه قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن

---

(١) سورة إبراهيم: ٥-٧.

(٢) سورة إبراهيم: ٧.

(٣) سورة الصف: ٥.

تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء﴾[١].

فبينما كانت أمّة بني إسرائيل، الأمّة العزيزة المفضّلة، الحاملة لرسالة الله، المحامية عن رسله، والدّاعية إلى طاعته، والناصرة لدينه، إذ تغيّر اتّجاهها، وانقلبت على أعقابها، فحلّت بها سنّة الإذلال، وألبسها الله لباس الذلّ والهوان والخزي في الدنيا، ولعذاب الآخرة أشدّ وأبقى. قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الحقّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾[٢].

وسنّة الإعزاز والإذلال هذه، هي الممرّ الّذي تمرّ من خلاله سنّة الاستخلاف الأوّل، لتتبعها سنّة التداول والاستدراج، ثمّ سنّة الاختيار الإلهيّ، ثمّ سنّة الاستخلاف الأكبر الّذي يختار الله لها الأمّة الطلائعيّة الّتي تقيم العدل في مشارق الأرض ومغاربها، بقيادة القائد المنصور الّذي يملؤ الله به الأرض عدلاً، كما مُلئت ظلماً وجوراً.

ثمّ إنّ المسيرة البشريّة في تطوّرها التاريخيّ تشهد دائماً خطّين متوازيين: **خطّ الذّل**، و**خطّ العزّ**. كما تشهد دائماً مجموعتين متصارعتين: إحداهما لا تفارق خطّ العز، والأخرى لا تنفكّ عن خط

---

(١) سورة آل عمران: ٢٦.

(٢) سورة البقرة: ٦١.

الذّل. والتي كتب الله لها العزّ الدائم هي المجموعة المؤمنة الّتي منحها الله في كتابه وسام الانتماء إلى ما أسماه بـ «حزب الله»، كما أنّ الّتي كتب الله لها الذّلّ هي المجموعة الّتي أسماها الله في كتابه بـ «حزب الشيطان»، وهي الفئة المناهضة للنبيّين وأوصيائهم، المعادية لأوليائهم، المواجهة لحزب الله مواجهة دامية مستمرّة.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مشيراً إلى حزب الله الأعزّة الغالبين:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ٥٥ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾[1] إلى قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾[2].

﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِيْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ٢١ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

---

(١) سورة المائدة: ٥٤-٥٦.

(٢) سورة المائدة: ٦٠.

وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1].

وفي خطّ المواجهة مع حزب الله، يأتي دور حزب الشيطان الّذي لم يفتأ يبثّ الفساد في الأرض، ويسفك دماء الأبرياء، ويقتل النبيّين، وأتباع النبيّين، وينشر الضلال، ويصدّ عن سبيل الله. قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ١٤ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ١٥ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ١٦ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ١٧ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ١٨ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ١٩ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ﴾[2].

---

(١) سورة المجادلة: ٢٢.

(٢) سورة المجادلة: ١٤-٢٠.

فالخطّ العزيز في الصراع التاريخيّ هو خطّ حزب الله، والخطّ الذليل هو خطّ حزب الشيطان، ويبقى الصراع التاريخيّ بين الخطّين مستمرّاً ضمن سنن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلى أن تنتهي سنّة التداول إلى سنّة الاختيار الّتي يختار الله فيها - بعد الابتلاء والاختبار التأهيليّ - الأمّة الّتي تتولّى خطّ حزب الله، وتتولّى أولياء الله، وتفي بالعهد مع الله ورسوله على الطاعة والنصرة. وعند ذلك، تُنفَّذ سنّة الاستخلاف الأخير الّذي أكّده القرآن الكريم في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾[1].

ولكي يتمّ اختيار هذه الأمّة الناصرة الشاهدة، وتتهيّأ الظروف الطبيعيّة لانبعاثها وانبثاقها، تجري سنّة إلهيّة أخرى من سنن التطوّر الاجتماعيّ الّتي أشار إليها القرآن الكريم وهي «سنّة الانتظار».

---

(١) سورة النّور: ٥٥.

عاشراً: سنّة الانتظار

وتعني سنّة الانتظار أنّ إرادة الله الّتي شاءت أن يقام «العدل العالميّ العامّ» على وجه الأرض بإرادة بشريّة، ضمن سنن «الابتلاء والاختبار»، و«الاستدراج»، و«التبديل والتغيير»، و«الإملاء والأخذ»، وبالتالي: سنّة «الاختيار والاستبدال»، إنّما تنفّذ سنّة الاختيار والاستبدال الّتي بها ترشَّح الأمّة الصالحة الأخيرة لـ«الاستخلاف الكبير»، من خلال تنفيذ «سنّة الانتظار» الّتي يتمّ فيها استعداد الأمّة الصالحة لقبول مسؤوليّة الاستخلاف الكبير، ويكمل تأهّبها لقيادة الأمم الأخرى، وإقامة مجتمع العدل العالميّ على وجه الأرض. قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ . وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾[1].

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ٢٨ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ

---

(١) سورة هود: ١٢١-١٢٢.

لا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ ٢٩ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾[١].

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ١٥٧ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾[٢].

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ٨٢ فَلَمَّا جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ ٨٣ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ٨٤ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾[٣].

وفي الآية الأخيرة – كما في الآية الّتي قبلها – تأكيد على ما تؤول

---

(١) سورة السجدة : ٢٨–٣٠ .

(٢) سورة الأنعام : ١٥٧–١٥٨ .

(٣) سورة غافر : ٨٢–٨٥ .

إليه سنّة الانتظار من القضاء المبرم على عناصر الشرّ، من غير إمهال، ولا انتظار آخر، وذلك عندما يصل قطار الانتظار إلى محطّته الأخيرة:

﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾.

﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ﴾[1].

﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾.

فعندما يصل قطار الانتظار إلى محطّته الأخيرة، لا يُنتظَر بالكافرين، ولا بالمنافقين أجلاً آخر، ولا يُمهَلون مهلة أخرى.

ومن هنا يُعرف أنّ الانتظار انتظاران:

﴿قُلِ انتَظِرُواْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾.

الأوّل: انتظار المجموعة المؤمنة لوعد الله الصادق وآياته وبشاراته:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ﴾[2].

---

(١) سورة السجدة: ٢٩.

(٢) سورة النّور: ٥٥.

والثاني: انتظار المجموعة الكافرة والمنافقة الّتي تكذّب بآيات الله ووعده، وتستهزيء بالمجموعة المؤمنة، وتتحدّاها في ما تؤمن به من وعد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ وسننه الّتي لا تبديل لها، ولا تحويل، فتقول متحدّية للجماعة المؤمنة:

﴿مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[١].

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[٢].

وعندما يتحقّق الوعد الإلهيّ، فيرونه ماثلاً أمامهم، يحيق بهم ما كانوا به يستهزؤون، وتُضرب عليهم الذّلة الأبديّة، ويسقط ما في أيديهم، وتساء وجوههم. قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ:

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ﴾[٣].

﴿فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا﴾[٤].

ولسنّة الانتظار هذه، صلة بسنن القيادة الإلهيّة الّتي هي - بدورها - مجموعة من السنن الاجتماعيّة الإلهيّة الخاصّة بالقيادات

---

(١) سورة الملك : ٢٥ .

(٢) سورة السجدة : ٢٨.

(٣) سورة الملك : ٢٧ .

(٤) سورة الإسراء : ٧ .

الإلهيّة، ومسؤوليّاتها المشتركة مع الجماهير، وعلاقاتها المتبادلة بالمجموعة المؤمنة من جهة، وبالمجموعة الكافرة والمنافقة من جهة أخرى. قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾[1].

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾[2].

وهناك مسؤوليّة خاصّة تحمّلها الأنبياء السابقون على خاتم النبيّين، بإزاء هذا الرسول الخاتم للنبيّين، والمصدّق لما معهم أجمعين صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ وَآلِهِمْ عَلَيْهِم. قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾[3].

هكذا أخذ الله الميثاق على جميع النبيّين السابقين على خاتم الأنبياء محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أن يؤمنوا به وأن ينصروه، وبما أنّ الإيمان بمحمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يعني طاعته، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ

---

(١) سورة الأعراف: ٦.

(٢) سورة الأحزاب: ٧.

(٣) سورة آل عمران: ٨١.

وَالْمُؤْمِنُونَ ... وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾[١] فميثاق الله الّذي أخذه على النبيّين، وأكّده هو أن يطيعوا محمّداً ﷺ ويتّبعوه، وينصروه، وهذا هو السّرّ في ما نجد التأكيد عليه في السنّة النبويّة من نزول عيسى عَلَى نَبِيِّنَا وَآلِهِ وَعَلَيْهِ السَّلَامُ في آخر الزمان، وبيعته مع وصيّ محمّد ﷺ، الإمام القائم من آل محمّد عَجَّلَ اللهُ تَعَالَى فَرَجَهُ الشَّرِيف، وطاعته له، ونصرته إيّاه، فإنّ طاعة عيسى ونصرته لوصيّ النبيّ محمّد ﷺ، تجسيد عمليّ تاريخيّ للوفاء بهذا الميثاق الإلهيّ الّذي أخذه الله على الأنبياء بطاعة محمّد ونصرته ﷺ.

ومهما يكن من أمر، فإنّ هناك ميثاقاً مأخوذاً من النبيّين على طاعة محمّد ﷺ ونصرته، وقد أخذ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من المؤمنين جميعاً نفس الميثاق؛ ميثاق الطاعة لمحمّد ﷺ، وميثاق النصرة له:

أمّا **ميثاق الطاعة**، فقد أشار إليه قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾[٢].

وأمّا **ميثاق النصرة**، فقد أشار إليه قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ

---

(١) سورة آل عمران: ٨١.

(٢) سورة المائدة: ٧.

بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[١].

ووفقاً لهذين الميثاقين (ميثاق الطاعة والنصرة مع الله، ورسله، وخلفاء الرّسل)، تجري مجموعة من سنن القيادة الإلهيّة[٢]، ومن أهمّها: سنّتا «الظهور» و«الغيبة»، فسنّة الظهور تجري عندما تفي المجموعة المؤمنة بميثاقها مع الله سبحانه وتعالى، فتعلن طاعتها ونصرتها للقيادة الإلهيّة، وتُنفِّذ ذلك ميدانيّاً، فإذا نصرت الأمّة القيادة الإلهيّة، وخضعت لطاعتها، وأثبتت عمليّاً وفاءها بهذا الميثاق الإلهيّ، ظهرت القيادة الإلهيّة، وقامت هي بدورها بنصرة المجموعة المؤمنة، وهدايتها، وترشيدها، والأخذ بها نحو قمم التطوّر والرّقي الدنيويّ والسعادة الآخرويّة، كما أشار إلى ذلك أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته المعروفة بالشقشقيّة؛ حيث قال فيها:

«أَمَا وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ لَوْلا حُضُورُ الْحَاضِرِ وَقِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ وَمَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ أَن لا يُقَارُّوا عَلَى كِظَّةِ ظَالِمٍ وَلا سَغَبِ مَظْلُومٍ لأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا وَلَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوَّلِهَا»[٣].

فحضور الحاضر من الأمّة في ساحة نصرة القيادة الإلهيّة،

---

(١) سورة التوبة: ١١١.

(٢) راجع للتفصيل بهذا الشأن كتابنا: «سنن القيادة الإلهيّة في التاريخ».

(٣) نهج البلاغة: الخطبة ٣، ص ٥٦، طبعة الأعلميّ، بيروت.

وطاعتها لها، استدعى ظهور الإمام من غيبته السياسيّة، وحضوره في ساحة التصدّي لزمام القيادة السياسيّة، وهكذا الأمر بالنسبة للإمام الحسين عليه السلام؛ فإنّ إعلان الأمّة نصرتها وطاعتها له، استدعى خروجه من غيبته السياسيّة وحضوره في ساحة التصدّي الرسميّ لقيادة الأمّة.

ومن جهة أخرى فإنّ سنّة الغيبة هي الّتي تنفّذ بحقّ القيادة الإلهيّة عندما تعرض الأمّة عن طاعة القيادة الإلهيّة ونصرتها، فإنّ تقاعس الأمّة عن نصرتها للقيادة الإلهيّة، وعصيانها، وخذلانها لها، هو الّذي استدعى انكماش حضور القيادة الإلهيّة، ولجوئها إلى زاوية الغيبة السياسيّة، وذلك عندما لجأ الإمام الحسن المجتبى، ومن قبله أبوه أمير المؤمنين صلوات الله عليهما - بعد رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله - إلى زاوية البيت، واضطرّا إلى عدم التصدّي الرسميّ لقيادة الجماهير.

فسنّتا الغيبة والحضور سنّتان من سنن القيادة الإلهيّة، يتّبعان في التنفيذ الظروف الميدانيّة الّتي تحكم المجتمع البشريّ، وفي إطار هاتين السنّتين، وعلى ضوء التعامل الّذي تلقّته القيادة الإلهيّة من قبل الجماهير من جهة، ومن قبل الطغاة من جهة أخرى، تتحدّد مواقف القيادة الإلهيّة، واستراتيجيّتها على مستوى الغيبة أو الظهور؛ فكلّما ضعفت الجماهير أمام الطغاة، واستسلمت لهم، حتّى أدّى الأمر بالطغاة إلى أن يضيّقوا الخناق على القيادة الإلهيّة، ويسلبوها فرصة التصدّي المعلن لقيادة الجماهير، انكمشت دائرة الحضور القياديّ

للإمامة الإلهيّة، وانحسر حضورها، ولجأت إلى ركن الغيبة، وكلّما عادت الجماهير إلى صوابها، وقويت عزيمتها، واكتملت أهبّتها لطاعة القيادة ونصرتها في مواجهة الجماهير، عادت القيادة الإلهيّة إلى الظهور، واتّسعت دائرة حضورها القياديّ بين الجماهير.

وغيبة القيادة الإلهيّة ليست بنمط واحد، بل تتكيّف وفقاً لظروف المواجهة مع الطغاة:

فقد تكون غيبة القيادة الإلهيّة **غيبة مكانيّة**، وذلك عندما تسلب عن القيادة الإلهيّة فرصة التصدّي لقيادة الأمّة في مكان مّا، وتتوفّر في مكان آخر؛ كما حصل لرسول الله ﷺ عندما هاجر من مكّة إلى المدينة، فغيبته عن مكّة كانت غيبة مكانيّة؛ إذ انتفت إمكانيّة ممارسته لدوره القياديّ في مكّة، بعد أن اجتمعت قريش على قتله فيها؛ ولكن توفّرت فرصة العمل في المدينة، فانتقل إليها، وهكذا الأمر بالنسبة لإبراهيم عليه السلام، عندما قال قومه: ﴿اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾[1]، فلم تعد بابل - بعدئذٍ - المكان المناسب لممارسة دوره القياديّ، بعد أن اجتمع قومه وطغاتهم على قتله فيها، فانتقل منها إلى فلسطين. وهكذا، تحقّقت سنّة الغيبة المكانيّة للقيادة الإبراهيميّة عن مدينته الأولى بابل، بعد أن ضاقت به ذرعاً، وذبلت فيها كلّ الفرص الممكنة لممارسة القيادة الإلهيّة دورها مع الجماهير.

---

(١) سورة العنكبوت: ٢٤.

وقد تكون غيبة القيادة الإلهيّة **غيبة عن بعض أدوارها**، عندما تمتنع عليها ممارسة ذلك الدور الخاصّ في ظروف اجتماعيّة وسياسيّة معيّنة، فتؤجّل ممارستها لذلك الدور إلى حين توفّر الإمكانيّة اللازمة لذلك. ويمكن التعبير عن هذه الغيبة بـ «غيبة التعليق»، أو «غيبة التجميد»؛ وذلك لأنّ القيادة الإلهيّة تؤجّل القيام ببعض أدوارها القياديّة في مقطع زمنيّ معيّن، فتعلّق القيام به إلى حين تجدّد الإمكانيّة والفرصة المناسبة، وهذا ما حصل بالفعل بالنسبة لبعض القيادات الإلهيّة على مدى التاريخ.

ومن أوضح الأمثلة لذلك: ما قام به أمير المؤمنين صلوات الله عليه بعد رحيل رسول الله ﷺ من تأجيل ممارسة القيادة السياسيّة، والاكتفاء بممارسة القيادة الفكريّة والعلميّة، حتّى استعادة الأمّة صحوتها، واستعدادها لطاعته ونصرته على الصعيد السياسيّ؛ كما حصل بعد مقتل عثمان.

وقد ورد في الحديث عن الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام بشأن ممارسة النبيّ ﷺ، وكذا أمير المؤمنين عليه السلام لغيبته التعليق:

«عَنِ الْهَيْثَمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الرُّمَّانِيِّ، قَالَ: سَأَلْتُ عَلِيَّ بْنَ مُوسَى الرِّضَا عليه السلام، فَقُلْتُ لَهُ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ! أَخْبِرْنِي عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام؛ لِمَ لَمْ يُجَاهِدْ أَعْدَاءَهُ خَمْساً وَعِشْرِينَ سَنَةً بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ جَاهَدَ فِي أَيَّامِ وِلايَتِهِ؟! فَقَالَ عليه السلام: لأَنَّهُ

اقْتَدَى بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي تَرْكِ جِهَادِ الْمُشْرِكِينَ بِمَكَّةَ بَعْدَ النُّبُوَّةِ ثَلاثَ عَشْرَةَ سَنَةً، وَبِالْمَدِينَةِ تِسْعَةَ عَشَرَ شَهْراً، وَذَلِكَ لِقِلَّةِ أَعْوَانِهِ عَلَيْهِمْ، وَكَذَلِكَ عَلِيٌّ عليه السلام تَرَكَ مُجَاهَدَةَ أَعْدَائِهِ لِقِلَّةِ أَعْوَانِهِ عَلَيْهِمْ ...» إلى آخر الرواية[1].

وقد تكون الغيبة غيبة زمانيّة مطلقة، وذلك عندما يصادر الطغاة كلّ فرص العمل من القيادة الإلهيّة، فيمتنع عليها مطلق الظهور العلنيّ في الساحة بكلّ ألوانه وأنواعه، فيمتنع على القيادة الإلهيّة كل ممارساتها القياديّة، حتّى على المستوى الفكريّ والعلميّ، فهنا تنفّذ سنّة الغيبة المطلقة إلى حين يتاح للقيادة الإلهيّة القيام بدورها القياديّ، فتعود إلى الساحة من جديد، وتنفّذ - حينئذٍ - في حقّها سنّة الظهور.

وهذا ما حصل بالفعل لموسى عليه السلام عندما ركز ذلك الفرعونيّ انتصاراً لأحد المؤمنين من شيعته، فجاءه رجل من أقصى المدينة يسعى، قال: ﴿يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾[2]، فخرج من المدينة خائفاً يترقب، فغاب عن جماهيره غيبة مطلقة، في مرحلة زمنيّة محدّدة إلى أن تتاح له الفرصة لممارسة دوره القياديّ.

وهذا ما قد حصل بالفعل عندما رأى ناراً، فقال لأهله: ﴿امْكُثُوا

---

(١) الوسائل، أبواب جهاد العدوّ، الباب ٣٠، الحديث: ١.

(٢) سورة القصص: ٢٠.

إنّي آنَسْتُ نَاراً﴾[١]، فرجع منها، وهو رسول من الله يحمل أعباء القيادة الإلهيّة، مبعوثاً إلى قومه؛ لكي ينجيهم من بأس فرعون وبطشه، ولكي يطيح بعرش الطاغية فرعون، ويقيم بدلاً عنه مجتمعاً إلهيّاً عادلاً، تحكمه شريعة الله.

فغيبة موسى عَلَى نَبِيِّنَا وَآلِهِ وَعَلَيْهِ السَّلَامُ عن بني إسرائيل - فترة لجوئه إلى مدين - كانت غيبة زمنيّة مطلقة للقيادة الإلهيّة، انتظرت فيها القيادة الإلهيّة من جهة، وبنو إسرائيل من جهة أخرى، عصر الظهور الّذي يتاح فيه للقيادة الإلهيّة أن تعود إلى جماهيرها، فتمارس دورها القياديّ المطلوب لإقامة حكم الله في الأرض.

وعلى هذا الأساس، فسنّة الغيبة الّتي تحكم القيادة الإلهيّة في ظروف معيّنة تقترن دائماً بسنّة الانتظار، السنّة الّتي ينتظر فيها الإمام وأتباعه من جهة توفر الظروف المناسبة لقيام القيادة الإلهيّة بدورها القياديّ المطلوب، وتحقّق الوعد الإلهيّ بانتصار المجموعة المؤمنة على طغاة الأرض، ومن جهة أخرى: ينتظر فيها أعداء الله حلول الوعد الّذي وعد الله عباده المؤمنين بالنصر، مستهزئين بالمجموعة المؤمنة إيمانها بالغيب وبالوعد الإلهيّ، قائلين أحياناً: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[٢] ؟! وأحياناً أخرى: ﴿مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ

---

(١) سورة القصص: ٢٩.

(٢) سورة سبأ: ٢٩.

صَادِقِينَ﴾[١] ؟!

وهذا الوعد الّذي يسألون عنه باستهزاء، هو ذلك الوعد الّذي أخبر عنه ربّنا؛ حينما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ﴾[٢]. وهو نفسه وعد الآخرة الّذي أشار إليه في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[٣].

ويأتي الردّ على هؤلاء المستهزئين - على لسان القرآن الكريم - حاسماً وصريحاً: ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ ٢٩ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾[٤].

---

(١) سورة السجدة : ٢٨ .

(٢) سورة النور : ٥٥ .

(٣) سورة الإسراء : ٧ .

(٤) سورة السجدة : ٢٩-٣٠ .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الثورة الحسينيّة مصدر الطاقة التأهيليّة في فترة الانتظار

وفي زمن الانتظار الأخير، انتظار الوعد الأخير الّذي أشار إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بقوله: ﴿فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[1]، هناك حاجة ماسّة إلى طاقة معنويّة هائلة، لا تجفّ، ولا تنفد، وتثور في ضمير الأمّة، وتحشّد طاقاتها؛ لكي تؤهّلها لدورها المطلوب الأخير.

إنّ هذا الانتظار الأخير التأهيليّ هو الّذي يتمّ في فترته - وإن طالت - إعداد جيل جديد من أمّة محمّد ﷺ، يختلف عن الجيل القديم في مؤهّلاته، وطاقاته الرساليّة، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾[2].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ

---

(١) سورة الإسراء: ٧.

(٢) سورة محمّد: ٣٨.

يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ﴾[١].

﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ﴾[٢].

فإذا كان الجيل القديم قد أعرض عن رسول الله ﷺ بعد رحيله، وتقاعس عن نصرته وطاعته، وركن إلى أعداء محمّد ﷺ من أمثال طغاة الأمويّين، فإنّ الجيل الجديد من أمّة محمّد ﷺ، وهو الجيل المرشَّح للقيام بالفتح الأكبر، والموعود للاستخلاف الإلهيّ الأخير على الأرض، جيل يوم الفتح، وجيل عولمة الدين الإلهيّ:

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾[٣].

إنّ هذا الجيل سوف يبقى على وفائه بالميثاق مع الرسول ﷺ، حتّى تحقيق أهدافه الكبرى كاملة تامّة، وإغلاق ملفّ عنتريّات إبليس، وحبائله، وفربكاته الغاوية، وسيطرته على مقدّرات بني آدم على وجه الأرض إغلاقاً نهائياً، وإقامة المجتمع العالميّ العادل على مشارق الأرض ومغاربها.

إنّ هذا الانتظار التأهيليّ بحاجة إلى طاقة هائلة تثير في الجماعة

---

(١) سورة المائدة: ٥٤.

(٢) سورة الأنعام: ٨٩.

(٣) سورة الصف: ٩.

المؤمنة كلّ مواهبها الإيمانيّة، وتنمّي فيها كلّ طاقات الثبات والصمود، حتّى يتمّ تأهيلها - ضمن تجربة تاريخيّة طويلة، تمرّ فيها على مختلف مراحل التأهيل - ، للقيام بدور الأمّة الرائدة، المطيعة، الناصرة للقائد الأعظم، الإمام الّذي يضطلع بدور القيادة الإلهيّة النائبة عن رسول الله ﷺ، السائرة في ركبه حتّى تحقيق الوعد الإلهيّ بالنصر التامّ.

إنّ هذه الطاقة الثوريّة المعنويّة الهائلة هي الطاقة الّتي فجّرها الإمام الحسين عليه السلام في ضمير الأمّة بدمه ودماء الطاهرين من أهل بيته، وجهود القادة من الأئمّة المعصومين من أبنائه عليهم السلام الّذين قاموا بتخليد ذكرى الثورة الحسينيّة، ومهّدوا لاستمرارها في ضمير الأمّة، لتستطيع القيام بدورها البنّاء في تأهيل الأمّة المنتظرة المرشَّحة لخلافة الله في الأرض يوم الفتح الموعود.

الفهرس

مقدّمة ٥

المدخل ٧

١. الإنسان والقوانين الحتميّة الكونيّة ٩
٢. السنن الحاكمة على المجتمع والتاريخ ١٠
٣. وعي القيادة الإلهيّة بالسنن والانسجام معها ١٦
٤. دراسة ثورة الحسين عليه السلام على ضوء من السنن الإلهيّة ١٧
٥. ثورة الحسين عليه السلام نقطة عطف في التطوّر الاجتماعيّ التاريخيّ ١٨

الثورة الحسينيّة وحاضر المجتمع البشريّ ومستقبله ٢١

في ضوء سنن التطوّر الاجتماعيّ في القرآن الكريم ٢١

أولاً: سنّة العدل والحقّ ٢٥
ثانياً: سنّة الاستخلاف ٣٣
المرحلة الأولى: الاستخلاف الفرديّ ٣٣
المرحلة الثانية: مرحلة الاستخلاف الجماعيّ ٣٧
ثالثاً: سنّة الابتلاء والاختبار ٤٧
رابعاً: سنّة الاستبدال ٦٦
خامساً: سنّة التداول ٧٤
سادساً: سنّة التبديل والتغيير ٨٥

سابعاً: سنّة الإمهال والأخذ ٨٩
ثامناً: سنّة الاستدراج ٩٣
تاسعاً: سنّة الإعزاز والإذلال ٩٩
عاشراً: سنّة الانتظار ١١١
الثورة الحسينيّة مصدر الطاقة التأهيليّة في فترة الانتظار ١٢٥

الفهرس ١٢٨

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی